حـــــرة

من النهر إلى البحر

اسم الكتاب: حـــرة من النهر إلى البحر
اسم الكاتب: ياسين السعداوي
تدقيق لغوي: د. محمد النجار
تصميم الغلاف: M S A
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2020 / 20999
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 13 – 6

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

حـــــــــرة

من النهر إلى البحر

رواية

ياسين السعداوي

للنشر والتوزيع
Arabic Library

إهــداء

إلى غزالة فلسطين القائلة " لا تخافوا، هذا الجسد كقميص رثّ لا يدوم، حين أخلعه سأهرب خلسة من بين الورد المسجّى في الصندوق، وأترك الجنازة وأقول هذه الحياة جميلة والموت كالتاريخ فصل مزيّف".

-ريم بنا-.

إلى روح أديب فلسطين غسان كنفاني، وإلى روح الطفل الشهيد محمد الدرة الطاهرة وكل من سبقهم وتبعهم فداءً لوطنهم المجيد، على روحكم جميعاً السلام.

المقدمة

"لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً، ولن نُستعبد بعد اليوم"

هكذا قال الزعيم الراحل البطل أحمد عرابي.

إن فكرة كون الإحتلال خراب ودمار بل وهلاك على كل ما يحل به في أي زمان ومكان لهو مفهوم ثابت وحاضر بأذهان الجميع، وان مفهوم المقاومة أيضاً حتى الخلاص لمبدأ راسخ بعقول كل من امتلك لبًا واستعمله.

لذا فإني أرى أن حديثي بتلك النقطة لن يضيف إليها إلا تكراراً، فمفهوم الحرية والحق وتلك الثوابت والقواعد لا جدال فيها ولا حديث عنها.

ولكن الإشكال الحقيقي هنا والذي جعلني ألتقط قلمي وأكتب، يكمن في التشوية والتدليس الذي يصيب تلك الثوابت، فيحيدها عن طريقها الصائب ويجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً.

هذه الرواية التي بين يديك مستوحاة من حقيقة مطلقة وبيّنة لن تندثر أو تختفي عن حياتنا أبداً، وإن كانت الشخصيات والأحداث الروائية من وحي خيالي البحت إلا أنها أيضاً حقيقية نراها أمامنا كل يوم وليلة.

وأخيرًا أحب أن أنهي مقدمتي وأقول: أنني ما كتبت حرفاً في روايتي تلك إلا وقصدت منه خيرًا، وما كتبتُ كلمة إلا وأردت منها أن أنير عقل الشباب مثلي ولو بضيٍّ خافت.

أتمنى أن تلمس تلك القصة قلب كل من يقرأها وأن تلمع الرسالة المقصودة منها بذهنه، وتترك بداخله معنى وأثراً لا يزول.

ياسين السعداوي

الفصل الأول

الحب هو دائما بداية المعرفة، مثلما النار بداية النور.

– توماس كارليل

السابع من أكتوبر 1998، تحديداً السابعة مساءاً.

دوماً ما كان وسيظل يوماً مميزاً للجميع.

فاليوم هو اليوم الخامس عشر الذي أحتفل به مع عائلتي، بمولد حفيدي الأقرب إلى قلبي عُمَر، قد أكون ظالماً بعض الشيء في قولي ذلك لكنه بالفعل كذلك.

- كل عام وأنت بخير يا عمر، والآن بعد أن تنتهي من كل ذلك الصخب، فلتأتي إلي يا صغيري كي تخبرني ماذا تريد كهدية ليوم مولدك.

أومأ مبتسماً ثم قبلته على وجنتيه وتركته يحتفل.

أشعر بل وأوقن بأنه سيفعل ذلك، سيطلب مني أن أحكي له قصة الصندوق كما يفعل كل عام تقريباً منذ ثلاثة أعوام، لكنني لا أعلم حقاً هل يجب عليّ أن أخبره الآن أم أنتظر، على أي حال سأتركه يحتفل الآن وأدعو الله ألا يفعل.

وبعد انتهاء اليوم ومع اقترابنا من منتصف الليل، جائني عمر وتبدو عليه علامات التوتر، تبسّمت له قائلاً: كم تريد يا فتى، لا تخف فقط أخبرني فأنا أريدك أن تكون الأسعد اليوم.

رد مسرعاً بعدما تغيرت تعابير وجهه القلقة: حقاً يا جدي تريدني الأسعد؟

- فقلتُ له بثقة: نعم بالطبع يا عمر.

- إذاً فأنا أريدك أن تخبرني وتحكي لي عن ذلك الصندوق، الذي طالما تمنيت أن تخبرني قصته، ففضولي كاد يقتلني، لا تنس لقد أخبرتني أنك تريدني أن أكون سعيداً وهذا هو الشيء الوحيد الذي سيسعدني فعلاً.

أغلقت المصحف وطلبت منه وضعه على المنضدة بجانب السرير، ثم قلت له: حسناً لك ذلك يا فتي، أنت الآن ناضج بما يكفي لأخبرك بالكثير والكثير، عليك أن تعلم كم أحببنا وطننا ودافعنا عنه بكل ما نملك.! نعم كل ما نملك من المال، الصداقة، الوقت، والحب!.

سكتت للحظة ثم أكملت مداعباً: هيا أغلق هذا الباب وتأكد بأن لا أحد يسمعنا ثم ناولني الصندوق.

قام في شغف وفرح قائلاً: حاضر يا جدي، فتح الدولاب وحمل الصندوق وجلس بجواري.

هاته، تحسسته بكل حب ثم وضعته جانباً.

- اسمع يا فتى سأخبرك الآن بالقصة التي طالما احتفظت بها داخلي، ولم أخبرها لأحد، لكن الآن وبعد أن بلغتُ من العمر أرذله يجب أن أوّرث تاريخنا إلى أبنائي، حتى تخبر به أولادك وأحفادك بعد أن أكون قد رحلت أنا عن الوجود، لذا فأريدك أنت تنصت جيداً.

فرد بحماس مفرط: حسناً يا جدي، كلي أذان صاغية.

******

نهاية 1947م..

في ليلة من الليالي الساهرة، وكما اعتدت أنا وصديقي محمود أن نجتمع سويا بمنزله بعدما أنهي عملي في التجارة مع أبي "الحاج عبد القادر" وينهي هو أيضاً عمله بالأرض، نتحدث عن أحوال البلد وعن سرقة أراضينا التي تنهب بقوانين مفصلة وأموال طائلة وألعاب سياسية قذرة نعلم عنها القليل.

دوماً ما كان محمود أكثر مني علماً وثقافة وكنتُ أجلس معه لأستفيد وأنتهل من علمه، خاصةً بالتحدث عن الماضي وكيف غدونا إلى ما نحن عليه الآن.

كان يحدثني يومها عن أحد شياطين اليهود والذي أريدك أن تعلم اسمه جيداً. "موسى مونتيفيوري". قال لي: أتعلم يا سالم هذا الرجل لا أعرف كيف أصفه إلى الآن، أهو وفي لبني جلدتة أم هو شيطان تجسد في هيئة رجل كي يسلبنا أرضنا بكل سهولة لعله كان الاثنين معاً.

قدم إلي فلسطين عام 1827 وكما اعتاد استكشاف حال بني ديانته في البلد، ولكنه قد وجد تلك المرة حوالي 500 يهودي فقراء وجعله ذلك الأمر في حالة سيئة، فلقد كان غيوراً عليهم جداً، لم يطل الأمر كثيراً حتى تمكن "مونتيفيوري" من تملّك أول قطعة أرض يهودية في فلسطين.

نتيجة تدخُّل بريطانيا لدى السلطات العثمانية، ليصدر السلطان "فرمانًا" سنة 1849م يجيز لليهود شراء الأراضي التي هي ديارنا، وكانت هذه على ما يبدو بداية اللعنة.

بنى هذا الرجل أول مستعمرة يهودية، والتي وبكل سهولة وضعف أُعترف بها رسمياً من السلطات العثمانية.

واستمر الأمر هكذا حتى الحرب العالمية الأولي، فكانت من نتائج الحرب هزيمة الدولة العثمانية وبالتالي، بدأت تطأ جيوش بريطانيا أراضي فلسطين الشريفة وكانت تلك حقاً هي بداية الخسائر.

قاطعتنا زوجته حور بصوت يبدو عليه الامتعاض: كيف حالك يا سالم تفضل الشاي.

دوماً ما كنتُ أشعر بامتعاضها لي لأنها تعلم بدورها أنني لستُ مؤمناً بالزواج بتلك الطريقة التي تزوجها بها محمود، وأن عندي خطط أخرى، كما أنها رفيقة ابنة عمي ريم..

ولقد كانت كارهة أيضاً لجلساتي مع محمود، فهي تحيا حياة هادئة سطحية ولا تريد إلا العيش فقط دون تفكير في تلك السرقة التي تحدث لنا منذ سنين تحت أنظار الجميع فهي تحب محمود بجنون وتخشى عليه بشدة من شر الصهاينة، كنت أكره مقاطعتها أحياناً لكن بتلك المرة كانت كالمخلصة لي من ذلك الحديث، فلم أكن بحالة مزاجية تسمح لي بالتحدث في أي شيء الليلة.

وضعت أكواب الشاي على المنضدة أمامنا وقد رسمت على وجهها ابتسامة صفراء كالحة، ثم رحَلَتْ وتركت خلفها هدوء مريب.

لاحظ محمود هدوئي وصمتي الدائم تلك المرة فقال متعجباً: ماذا بك يا صاحبي؟!، أشعر أنك تريد أن تحدثني في أمر آخر، هيا قل!.

-أنا أعلم تماما أهمية تلك الجلسة يا محمود، وأقدر ذلك الكلام حقاً، لكنني أريد أن أحدثك بشيء آخر.

- إني أستمع إليك يا سالم، تحدث.

أكملت في ضيق: لقد سئمت من حديث أبي وأخي الدائم عن الزواج، فهم يريدونني أن أتزوج الليلة قبل غداً، وأنا حقاً لا أمانع لكني لم أجد بعد من أشعر أنها تلك من سأكمل معها حياتي، وأشعر أنها هي حقاً التي أريد، أنا أعلم أنك تؤيدهم وتريدني أن أستقر وأتزوج مثلك، ولكنني أرفض تلك الطريقة في الزواج وأؤمن تماماً بأنني سأجد مرادي ذات يوم، كما أنني لا أجد تلك الأجواء التي نمر بها مناسبة لذلك.

حدق بي كثيراً ويكأنه لا يعلم ماذا يقول أو لا يريد أن يقول رأيه كي لا يرهقني هو الآخر، ثم قال بعد أن أخرج زفيره بيأس: أتمنى يا صديقي أن ترزق خير النساء إن شاء الله وتجد مرادك مهما كان.

تبسمت بوجهه وأخبرته برتابه أن عليَّ الرحيل لأنني سأستيقظ باكراً لأذهب إلى السوق.

ودّعته ورحلت.

على الرغم من رجاحة عقل وقرب محمود مني، إلا أنه لم يتفهم بعد ما أحدثه عنه، لذا فمن الواضح أنه يجب عليّ أن أنتظر وأؤمن بما أؤمن به وحدي حتى قدومه، وعليّ أن أتحمل حديث أبي وأخي المتكرر..

******

- يا علي.
- نعم يا أبي
- كم الساعة الآن؟
- إنها التاسعة والربع.
- لقد تأخر أخوك، يبدو أنه مازال نائماً اذهب فأيقظة فهناك الكثير لنفعلة اليوم، ولكن قبل أن تذهب تعال أحدثك قليلاً.
- حاضر يا أبي.
- اسمع يا علي أنت تعلم أن سالم يحبك ويحترمك، لذا فأريدك أن تحدثه مرة أخرى عن ابنة عمه ريم، تعلم كم هى جميلة ومهذبة كما أنها تريده وترغبه، أعرف أنك حدثته قبل ذلك ولكن أريدك أن تكلمه مرة أخرى لعله يقتنع.
- سأحاول يا أبي.
- ها قد أتى سالم.

لم يكن قدومي إلى المحل صباحاً يسيراً عليّ، ليس لأنني كسولاً وأسهر كثيراً ولكنني أجد متعةً في النوم تخفيني وتسافر بي بعيداً عن كل همومي، كما أنني كنت أخشي وأعلم تماماً أنهم سيحدثونني مرة أخرى في ذلك الموضوع.

- السلام عليكم يا أبي، صباح الخير يا أخي.
- أهلاً يا سالم..

ذهبت وحاولت الابتعاد عنهم والانشغال بالعمل وقضاء حوائج الزبائن، حتى تنقضي تلك الساعات البطيئة، فلقد كنتُ أشعر بأنني مسجون بغير قضبان.

فالسجن لم يكن يوماً أسوار وجنود وصافارات، فتفكيري وخوفي يسجناني داخلي بقيود وسلاسل لا يراها أحد غيري.

فكيف يمكنني التفكير في الزواج وأنا أشعر بأن النهاية تقترب، بأننا نُسلب كل شيء وقريباً سيقضي علينا، كما أنني لم أجد من تجعلني مجنوناً وعاشقاً لها كما قرأت عن العشاق قديماً، كان صوب عيني دوماً ذلك الأمرين ولم أكن أعلم أيهما يطغى على الآخر، ولكنهما بالنهاية يفضيان إلى نتيجة وحيدة.

لذا فلا يمكنني أن أتزوج قبل أن أحيا قصة حب مع من أريدها، لم يكن هناك مشكلة بريم بل كانت مكتملة ومناسبة تماماً وكانت أيضاً تحبني لكن المشكلة كلها كانت بي.

مرت بعض الساعات من العمل وبدأ يهدأ البيع قليلاً، فجاءني علي وطلب على استحياء أن يحدثني، حينما كان والدي الحاج عبدالقادر خارجاً.

نعم ذلك ما كنت أخشاه، قلت ذلك محدثاً نفسي.

- اسمع يا سالم، أدرك أنني حدثتك كثيراً في ذلك الموضوع، وأعلم أنك قد مللت ولكننا حقاً نريد الاطمئنان عليك، ولا يوجد أفضل من ابنة عمك ريم. إنها فتاة جميلة..و...

كان الصمت يخيم على وجهي، فلا أريد أن أخبره للمرة الألف أنني أشعر بالنهاية تقترب. إننا نُحتل وقريباً سنُلقى من ديارنا خارجاً.

هل عليّ أن أخبره أيضاً أنني خائف أو حتى أنني أحلم بتلك الجميلة التي لا أعلم شيئاً عنها، سوى تلك الومضات التي ترسلها لي بأحلامي أو تلك الرائحة الساحرة التي تفوح مصاحبة لومضاتها.

الله أكبر، الله أكبر..

- سأذهب للصلاة يا علي، أراك بعدها إن شاء الله..

الحمد لله كان صوت الأذان هو منفذي للخروج من تلك الورطة أيضاً، كما كان صوت حور بالأمس أظن أن الحظ بجواري بعض الشيء.

قضيت الصلاة وتحاشيت أبي وأخي حتى انقضى اليوم بهدوء.

جائني محمود في ذلك اليوم إلى السوق.

- السلام عليكم يا عم عبدالقادر.

بعد الانتهاء من الترحيب والتقبيل والأحضان المعرّقة، طلبتُ من محمود أن يستريح.

- بعد أن تنتهي أنت ومحمود، لا تنس أن تغلق المحل وتدخل باقي تلك البضاعة هيا بنا يا علي. قالها أبي وهو يترجل للخارج، وغمز من خلفي محمود ورحل.

- محمود إن كنت ستحدثني عن ذلك الموضوع سأرحل، قلتها بعدما غادروا.

تبّسم وقال: لا يا صديقي لم أتيك لذلك، ولكنني أعلم ما تشعر به، إنها النهاية بكل تفاصيلها يا صاحبي، لقد فعلوها الصهاينة وامتلكوا أراضينا وبيوتنا وكل ما نملك وأشعر بالخوف مثلك تماما.

إنه ذلك القانون يا محمود الذي أوصلنا إلي تلك المرحلة من الاضمحلال والانهيار. قانون الطابو.[1]

- وبالطبع بعد أن أصبح الفلاحون يتهربون من تسجيل أراضيهم، لخوفهم من التجنيد ولكثرة الضرائب عليهم، ظهرت طبقة من الملاك الكبار والعائلات التي استحوذت على قطع كبيرة من الأراضي.

- وتلك اللعنة الأخرى أيضا يا محمود نظام تملك الأجانب.[2]

الذي من خلاله تملك الأجانب الكثير من الأراضي والممتلكات، والسماح لهم بشراء الأراضي وما تبع ذلك من عملية بناء المستعمرات الألمانية والصهيونية في أنحاء مختلفة من فلسطين، كما أن إلغاء نظام الإدارة للأراضي وفق الشريعة الإسلامية له أثر كبير في ذلك، فلقد كانت تلك هي المرحلة

---

[1] (قانون يوجب على الفلاح تملك قطع الأراضي التي يزرعها بسند ملكية وقد اتخذ شكله النهائي عام 1861، والذي بدوره كان يفرض على الفلاح الكثير من الرسوم بالإضافة إلى الضرائب الآخرى، والطامة الكبرى للفلاح بالطبع وهي التجنيد في فترة الدولة العثمانية. حيث أنه بوجود ذلك السند سيكون هناك حصر لكل الشباب بالقرية وبالتالي أخذهم لقضاء الخدمة العسكرية ومصير مجهول.)

[2] (لم يكن لدى الأجانب الحق في شراء الأراضي قبل صدور ذلك القانون عام 1869، ولكن نتيجة لإزدياد ديون الدولة العثمانية والضغوط الخارجية أصدرت قانوناً يتيح تملك الأجانب للأراضي وبالتالي أخذت الدول في إرسال رعاياها للإقامة والعمل على شراء الأراضي في فلسطين.)

الأولي من تسرب وانتقال الأراضي من العرب الفلسطينيين إلى غيرهم، بما في ذلك مندوبي الحركة الصهيونية.[1]

- أخشى يا صاحبي أن يأتي يوم ويعتقد فيه الناس أن الفلسطنيين هم من باعوا أرضهم، وأننا تركنا هؤلاء يسلبوننا حياتنا هكذا بكل هدوء!

رددت متعجبًا من حديثه:

- كيف يا محمود وإن ما كانت تستهدفه الخلافة العثمانية في ذلك الوقت هو الأرض المشاع (هي الأرض الغير معروفة لشخص بعينه بل لأهل القرية دون استثناء).
- فحتى عام 1918 كانت نسبة 70٪ من الأراضي الفلسطينية أراضي مشاع، كما أنه لمن الظلم أن نُتهم بذلك، لأن الصهيانة قد أسسوا الجمعيات السرية التي يختبئون خلفها كما كانت عادتهم دوماً، حتى يستطيعوا الشراء بطريقة غير مباشرة والجميع يعلم ذلك.

إننا قد سقطنا في حفرة من الجحيم يا صديقي، نحن ننهار ولا يمكننا فعل شيء. اليهود يمتلكون الكثير والكثير الآن ويعاملوننا كعمال عندهم، وأشعر أنهم يخططون لشيء كبير سيذهلنا قريباً، ونحن مكتوفي

---

[1] - تم الاستعانة في جزئية القوانين بموقع ويكيبيديا ووكالة الأنباء الفلسطينية وفا. ولمزيد من التفصيل عن كلا القانونين يمكنك البحث بسهولة على الإنترنت.

تنوية: أبى السلطان عبدالحميد أن يبيع جانباً من فلسطين، ليتخذه اليهود وطناً لهم.(برتوكولات حكماء صهيون)

الأيدي هكذا ولا يمكننا فعل شيء، أنا أحترق غيظاً كما تفعل أنت أيضا، فأنا أشعر تماماً بأننا سندخل تلك المحرقة التي أدخلها لهم هتلر سابقاً بل وأسوأ من ذلك، هيا بنا نذهب يا صاحبي، فإني تأخرت على حور اليوم.

أغلقنا المحل وبالطبع لم ننس أن نُدخل البضاعة، ثم ذهبنا في طريقنا.

لقد كنا أصدقاء مقربين جداً لكننا لم نكن نضحك كثيراً، ونلقي بالنكات والمزحات كعلاقات الأصدقاء العادية، حتى ولو كنا مرحين أيضاً بطبعنا. فكيف لنا ذلك، ونحن نترقب انهيارنا وسرقتنا التي تحدث أمامنا.

لكنني سأهرب مرة أخرى وأنام، وداعاً يا محمود أراك غداً.

غداً..

تلك الكلمة التي أرددها كل حين وأخشاها بجنون، لكن لا شيء يمكنني فعله سوى الانتظار والمشاهدة كيف ستسلب حياتي وآمالي وأحلامي بكل سهولة، كيف سأنتبه لنفسي مدركاً أن خيالاتي كاذبة حول من أنتظرها وأتمناها وأنني لن أجد يوما ما أبحث عنه.

لا يوجد غير روتين يكرر وعلي تقبله بكل هدوء، أنت مثل أبيك والذي كان بدوره مثل أبيه وكذلك سيكون ابني، هل فعلاً سأجد تلك الجميلة التي لا أعلم كيف هو شكلها! ما هو اسمها، كيف سيكون صوتها، أو حتى أين تقطن. لتخرجني من ذلك الظلام القابع على حياتي!، هل ستبتسم لي وأبتسم

إليها، هل ستعشقني وأتيّم بها، أم أنني لازلت مراهقاً وأحاول جاهداً البحث عن اللاأحد وسأرجع إلى نفس النقطة (ريم).

وحتى لو وجدتها، فكم من الوقت سنحيا سوياً قبل أن تمطرنا قذائف الصهاينة.

لا داعي للمقاومة، استسلم للنوم فلقد أثقلت رأسك اليوم بالكثير.

*****

- ثم ماذا أستظل هكذا ترجع كل يوم متأخر من عند صديقك هذا سالم، لقد مللت من تلك الطريقة يا محمود.

قالت حور في غيظ وأنا أدخل من الباب.

ولكنني كنت ميقناً أنها غاضبة من أجل صديقتها ريم فحاولت احتوائها قائلاً: وما المشكلة بهذا يا حبيبتي إنه صديقي على أي حال، وهو بالمناسبة حر بشأن عدم الزواج من صديقتك، لا أعلم لماذا ولكنه حر يا حور، لكل منا حياته الخاصة.

- رق صوتها ثم قالت: إنها تحدثني كثيراً عنه يا محمود ولا أعلم ماذا أخبرها، إنها تحبه حقاً، تخبرني أن أباه الحاج عبد القادر ووالدها قد اتفقا على زواجهما ببعض قبل وفاة أمها.

- إن تلك الأشياء ليس لنا يد بها يا جميلتي، إنه نصيب كما أخبرني والدك بأول مرة تقدمت إليك بها أتذكرين؟

(ضحكات هستيرية).

– ككل مرة تخرجني من غضبي ولا أستطيع أن أسخط عليك إلا لثوان معدودة، دعنا ننهي إذًا هذا الحديث، ولكن ستحدثه في ذلك الأمر مرة أخرى يا محمود.

قبّلتها على جبهتها بحنو ثم قلت: حسناً يا حور، والآن هيا جهزي العشاء فلقد نال مني التعب اليوم.

ابتسمت بحب في وجهي ثم رحلت.

تركتها تذهب وحدثت نفسي وأنا متكئ علي كومة من القطن وأطيل النظر بالسقف: أنت لا تعلمين شيئاً يا حبيبتي، الأمر ليس كما تتخيلينه، إننا ننتظر وقوع الكارثة التي قد تزهق أرواحنا جميعاً، ولكن إلى أن تأتي تلك اللحظة علينا أن نبتسم ونتناسى فذلك أرحم كثيراً من شعور الخوف الذي سيقتلنا كل يوم.

*****

سنموت جميعا، صدقوني الجميع سيفني.

سنموت.. سنموت..

لم يكن صباحي مثالي في ذلك اليوم، فليس من الجميل أن أفيق قبل موعد العمل بساعتين على صوت عبدالهادي مجذوب القرية، والذي أعتقد أنه ليس مجذوب بل إنه أكثر من يستشعر حقيقة ما سيحدث بنا جميعاً.

تحركتُ من سريري ببطئ شديد كسلحفاة ضخمة، أعددت كوب القهوة منتظراً أن تدق ساعة العمل، متأملاً في أراضي قريتي ويكأني سأشتاق إليها وأفكر ملياً في ما إذا كانت أحلامي تلك حقيقة أم أنها خيال بحت، لا أتحدث

بالطبع حول سرقة أراضينا فلقد أصبح ذلك واقعاً لا خلاف فيه وإن كان يزداد مع الوقت ولكنه أصبح واقعاً علي أي حال، ولكنني أتحدث عن تلك الفتاة التي تـأسرني ولا أعلم حتى إن كانت موجودة حقيقةً أم لا.

هل سيأتي ذلك اليوم الذي أراها فيه، يدق قلبي حينما تلامس يداي يديها الناعمة، وتبتسم بسمة ترجع روحي إليّ، بينما يداعب الهواء الرطب خصلاتها ثم ألملمها أنا عن وجهها الجميل ونحن نحتسي قهوتنا سوياً، أم سيظل ذلك الكرسي بجواري فارغاً للأبد.

- عم سالم.

إسراء!

- ماذا أيقظك الآن يا حبيبتي!

- لا أعلم يا عمي سمعت صوت ذلك الرجل الذي كان يمر، ففزعت ولم أستطع النوم، هل حقاً سنموت يا عمي، أنا خائفة.

ضممتها بين ذراعي، ثم أخبرتها أنه مجنون يا ابنتي، أتخافين من كلمات عبدالهادي ثم أطلقتُ ضحكة كاذبة كي أطمئنها، وأردفت بتلك الكلمات التي تُطمئن الأطفال، أنت شجاعة أعلم ذلك وإلى آخر تلك الكلمات التي يجب أن تقال.

حاولت إخفاء دموعي التي سالت حينما تحسست جسدها المرتجف، وحمدت الله أنها لم ترني فلا أعلم ما كان سيحدث لها لو رأتني كذلك.

أخشى عليك حقاً يا ابنة أخي من القادم ولكن عليّ إخفاء ذلك.

من قال يوماً أن الأطفال لا تدرك أو لا تفهم، قد يكونون لا يعلمون الكثير لكن أحاسيسهم الصادقة ومشاعرهم البريئة دوماً ما كانت قادرة على الإدراك والفهم دون الحاجة إلى العلم بأي شيء.

*****

ذهب أبي وأخي في ذلك اليوم للإتفاق على بعض البضاعة اللازمة للمحل، فلقد قل مخزوننا من المخزن، فدوماً ما كان أخي علي جيد بالمساومة والتجارة وتلك الأشياء التي لا أجيدها أنا، ومكثت أنا بالمحل.

كنت وحدي في ذلك اليوم منهك من العمل وضُغطتُ لأن أبي وأخي قد رحلا باكراً وتركوني منهكاً، وليس معي في المحل سوى العم عامر.

إلى أن جاءت تلك اللحظة التي كانت قادرة على القضاء على كل إنهاكي وألامي وقتها، لا أعلم ماذا يمكنني أن أقول عنها بالتحديد.

لكنني سأتحدث عن شعوري في ذلك الوقت وأحاول أن أصفه بدقة.

دوماً ما كنا نعلم أن للخيال وجودًا بداخلنا وأنه يمكنك التحكم به كيفما شئت فتفعل كل ما تريده حينها، وأن أيضاً عليك أن تصطدم بالواقع في النهاية والذي يكون مختلفاً تماماً عن تصورك أو دعنا نقول أنه يكون منافياً لخيالك المثالي تماماً.

ولكن ماذا لو حدثت تلك المعجزة وتوافق الاثنان، فامتزج خيالك الممتع مع واقعك الممض وفجأة تحول ما كنت تحلم به إلى حقيقة.

أخبرني بربك ماذا كنت ستشعر.

نعم تلك الابتسامة التي على وجهك الآن وذلك التلعثم والشعور بأنك في عالم أخر هو ما أقصد.

لقد كانت هى!.

كما تخيلتها تماما بكل تفاصيلها، بنفس تلك الرائحة الذكية، المنعشة التي لم أستنشق عبيرها سابقاً سوى في أحلامي، العينان الزرقاوتان والخطوات الهادئة.

لحظات خاطفة وقفت بها متصلباً ومبتسماً ابتسامة بلهاء، ولا يمكنني فعل أي شيء غير ذلك حتى رحلت عني بسرعة كالبرق، كما لو كانت طيفاً وليست حقيقة.

سقط من يدي كوب الماء منكسراً وأفاقني صوت الزجاج الذي لملمته مسرعاً، وحاولت الركوض خلفها كالمجنون تحت أنظار العم عامر.

لكن للأسف فلقد أُدميت قدمي، حينما اخترقتها إحدى قطع الزجاج المكسور.

نعم ذلك الجرح الذي بأصبع قدمي الكبير كان بسبب ذلك، وعلى الرغم من ألمي إلا أنني كنتُ مبتسماً ببلاهة، غير مبالياً ويكأنني لا أشعر.

أعانني العم عامر حتى تمكنت من الجلوس لأداوي أصبعي، ويكمل هو باقي العمل حتى أستطيع أن أسترجع بعضاً من عقلي المسلوب.

يبدو أنه قد لاحظ ذلك!.

لم أفكر حتى في أن يلحظني أحد، فماذا سيخيفني وأنا معها، ما الذي يمكنني أن أهتم به غيرها وهي أمامي.

لكن من هى تلك السارقة التي سلبتني كل ما أملك عقلي، قلبي وروحي وتركتني هكذا خاويا مشتتًا، أبحث عن أي شيء يدلني عليها ولكنني فرِحٌ أيضا بطريقة لا توصف.

لم تكن عادة عندي السعادة والمرح والتفاؤل، الجميع كانت تتملكهم الغرابة حيالي بذلك اليوم، ماذا دهاني أعتقد أنني فقدت عقلي، حقاً لولا أنه لا يصح ذلك لكنت قد رقصت فرحاً حتى ولو كنت سأرقص مع عامر نفسه.

شعور مختلف لم أعهده سابقاً، أشعر بأنني أمتلك العالم بأسرة ولا ينقصني شيء، الآن أنا أثرى رجل بالعالم.

ولكنني لم أعرف أيضاً من هى تلك التي فعلت بي كل ذلك، سأعرف ذلك يوماً ما بكل تأكيد ولكن الآن عليّ الاستمتاع والاحتفاظ بصورتها المبهرة بعقلي، وأستنشق مسكها الذي لم يرحل عني للحظة مذ كانت تزورني بأحلامي، ولكنه بتلك المرة كان حقيقياً!

الفـصل الثاني

الشيء الوحيد الذي لا نكتفي منه أبداً هو الحب،
والشيء الوحيد الذي لا نعطيه كفايته أبداً هو الحب.

هنري ميلر

- والآن يمكننا أن نفتح الصندوق يا عمر، وأخرج لك أول شئ منه.

فتحت الصندوق مستحضراً تلك السعادة التي كانت تتملكني في ذلك اليوم، مسترجعاً الذكريات ومستنشقاً ذات العطر الفائح من الوشاح الذي تركته خلفها.

- ما هذا وشاح! سأل عمر.

نعم يا بني، فلقد تركته خلفها حينما كانت تشتري من العم عامر. كانت ممسكة به لكنها انشغلت في الحقائب التي كانت تحملها فنسته ورحلت.

كنت أحمد الله أن العم عامر لم ينتبه لذلك الوشاح الذي التقطه وأخفيته سريعاً.

- وماذا عن تلك النظارة وذلك ال....

- ستعرف كل شيء في وقته تمهل يا بني.

أغلقت الصندوق وأكملت القصة.

*****

أخذتُ الوشاح ورحلت مسرعاً بعدما ضمدت اصبعي وخرجت أبحث عنها ولكنها كانت قد اختفت وذابت بين الجموع في السوق ولم يعد لها أثر.

فقررت الذهاب إلى مكان عمل محمود لأخبره بأنني كنت على حق، وأنني لست مجنوناً فلقد وجدتها بالفعل.

حينما وصلت بحثت عن محمود ثم اقتربت منه واحتضنته بسعادة وتراقصت معه وأخبرته بصوت فرح وأنا أمسك بكتفيه وأهزه بقوة: كانت هنا ورأيتها يا محمود.

- من هي تلك الذي وجدتها يا مجنون، اخفض صوتك حتى لا ينظر إلينا الناس، وما هذا الذي بيدك.

فقلت له: أنهي عملك أنت وسأكون بانتظارك لأحكي لك ما حدث بالتفصيل، والآن سأرحل وأراك لاحقاً في البيت عندي.

نظر لي ويكأنني فقدت عقلي ثم وافقني على الفور حتى يتخلص من تصرفاتي الغريبة.

جلستُ ساعات أتأمل تلك اللحظات التي مرت سريعاً، أسرع من أي شيء مررت به في حياتي، أتذكر عيناها التي سحرتني وأستنشق رائحة الوشاح الذي خلفته ورائها.

صوت قرع الباب.

- تفضل.

- هذا أنتِ. تعالي يا إسراء.

دخلت إسراء الغرفة عليّ تحمل بيدها بعض الحلوي وتقول بسعادة العم محمود بالخارج وينتظرك.

قبّلتها وقلت لها: أخبريه أن يدخل.

بمجرد دخوله وجدني أردد تلك الكلمة مرة أخرى كالمجنون، لقد وجدتها يا محمود، وجدتها.

نظر إليّ بعد أن أغلق الباب خلفة وكشف عن نواجزة من الضحك وقال: ألم تهدأ بعد، انتظر ريثما أجلس ثم أخبرني من هي تلك التي وجدتها أيها المخبول.

-إنها الفتاة التي تراودني بأحلامي، إنها بكل تفاصيلها تماماً حتى تلك الرائحة التي كنت أستنشقها بحلمي، أستنشقها في ذلك الوشاح الذي تركته.

- إذاً أخبرني، من هي تلك؟.

- لا أعلم.

- ما أسمها؟

- لا لم أسألها.

- إلى أين ذهبت؟

- لم ألحق بها في الحقيقة.

قال وقد عقد حاجبيه ممتعضاً: أتعلم يا سالم لطالما ظننت أنني أصاحب مجنوناً والآن تأكدت من ذلك، كيف لا تعلم من هى ونحن نعيش في قرية صغيرة كتلك.

رددت محتاراً: لا أعلم صدقني، إنها أول مرة أراها بها، لم أصادفها قبل ذلك.

نظر نظرة لم أفهمها في ذلك الوقت، كما لو كان أدرك شيئاً ولم يرد أن يخبرني به، ثم أردف: حسناً يا صاحبي سأدعك وأرحل الآن، حتى نعلم من هو ذلك الطيف الذي يطاردك والذي قريباً سيفقدك عقلك تماماً، كما أنني لا أريد أن تغضب علي حور بسببك اليوم ثانيةً.

- ضحكت وقلت له: حسناً اذهب أنت الآن، رحل وتركني مسحوراً وهائماً أفكر بها.

مكثت قليلاً قبل رحيلة ثم خرجتُ للعشاء بعد ما نادت عليّ زوجة أخي أشجان، والتي كانت بمثابة أمي حتى ولو لم تكن كبيرة بالسن كذلك، لكنها كانت بعيني كذلك فلقد عوضتني عن رحيل أمي عني وأنا صغير، وحتى لو كنت ناضجاً الآن وأمتلك لحية فإنني لازلت بحاجة إلى أمي مهما كان لأحكي لها. لاحظت أشجان أيضاً التغيّر بمزاجي الغير معتاد وسعادتي المفرطة، ويكأنني وجدت كنزاً أو ما شابه، وبنظري أنا فلقد وجدت كنزاً بالفعل.

أنهيتُ عشائي ودخلت لغرفتي مرة ثانيةً.

فقَرَعت الباب وكنت أعرف أنها هي، فأذنت لها بالدخول مباشرة قبل أن تقرع ثانيةً، نعم لقد كنت بإنتظارها، بإنتظار أمي كي أخبرها أنني وجدت فتاتي كمراهق مخبول بزميلته بالصف.

دَلَفت وعلى وجهها ابتسامة تخبرني بأنني أخفي عنها شيئاً، فابتسمت أنا الآخر ثم قلت لها: سأخبرك قبل أن تسأليني ولكن عديني أن لا تخبري أحداً.

- قالت وعيناها تملؤهما الفضول: حسناً اتفقنا أخبرني هيا ماذا حدث؟

حكيتُ لها ما حدث وأنا غير واثق من إذا كانت ستحفظ وعدها كما أخبرتني أم لا، لكنني كنت بحاجة لإخبارها أكثر من ذلك الفضول الذي كان بعينيها لتعرف، ولا أعلم لماذا طلبت منها ذلك على الرغم من جنوني الفاضح حتى أنه قد يكون العم عامر علم بالفعل أنني مغرم ومسحور، لكنني شعرت بأن عليّ

أن أبقية سراً حتى أعلم من هي على الأقل، كما ان أشجان قد تدعم موقفي أمام أبي حينما أتقدم لطلب تلك الفتاة..

*****

مرت ثلاث أيام ببطئ شديد، كنت محتاراً وأفكر في ماذا سأفعل كي أعلم حتى ما اسمها، لم تأت ثانيةً ولم تمر حتى من السوق كأنها لم توجد من الأساس.

غدوت أسرح كثيراً في جدران المحل ويكأنني أرى المكان لأول مرة، كما لو كنت لم ألحظ أن حوائطة صفراء متهالكة من قبل، أو أن العم عامر يمتلك لحية بيضاء طويلة ويفقد إحدي أسنانه الأمامية، يبدو أنني أكتشف أيضاً أنه لا يوجد إلا مقعدين بالمحل كله.

ماذا بي! هل سأظل هكذا أسرح في أشياء أعلمها سابقاً وأفعلها كل يوم، ولكنني حقيقةً لا أفكر إلا بها تلك السارقة التي سرقت قلبي ورحلت.

- سالم، يا سالم.

لقد كان العم عامر يبدو أنه لاحظ عيني الحمراوتين وعدم تركيزي بشيء حتى أنه يعيد مناداتي كي أنتبه إليه.

- ماذا بك؟ سألني العم عامر متعجباً من حالي.

- لا شيء فقط لم أنم جيداً.و ...

قاطعني وقال: أعلم أنك تفكر بها.

تلك الفتاة التي تسببت بجرح قدمك وتركتك هكذا كالمجنون تفكر بها ولا تعلم أستراها ثانيةً أم لا.

- لا أعلم ماذا أقول.

- لا تقل. بل أنا الذي سأقول لك شيئا، لا أعلم أسيريحك أم سيرهقك أكثر.

- قلت بلهفة: أخبرني يا عم عامر، تعرف شيئاً عنها صحيح؟

- صحيح يا بني. صمت قليلاً وأطلق زفيرة وأكمل: لابد أنها هي ابنة نوعام.

- فرددت اسمه متعجباً نوعام! من هو نوعام هذا، لم أسمع اسمه من قبل؟

- رد العم عامر بحنق: إنه أحد كبار الصهاينة والذي ابتاع الكثير من الأراضي قبل قدومه حتى يقطن بالقرية هنا بنهاية البلدة قريباً من الشجرة العجوز. ترددت كثيراً قبل أن أخبرك بهذا لكني قلقت عليك من كثرة التفكير.

اسمع يابني عندما تصير كهلاً مثلي ستعلم أن هناك أشياء لا يمكننا فعلها، أن ليست كل الأحلام يمكن تنفيذها وأن هناك ما يسمي بالمستحيل فعلاً وليست كلمة هكذا وُجدت كي نخرقها.

ربَتَ على كتفي وقال: أرح عقلك من التفكير بها وانظر لحياتك.

نظرت إليه بصدمة وهززت رأسي مؤيداً لكلامه، ثم خرجت أسير وحدي بلا هدف في القرية، كانت الشمس قد اقتربت من الرحيل وأنا أسير في القرية ولا أعلم إلى أين سأذهب، وأترك لقدمي الحرية الكاملة في أن تقلني هي حيث تشاء، وكانت على ما يبدو أنها تشاء أن تذهب بالطبع للشجرة

العجوز! رغم أن رأسي كانت تعج بالأفكار حول ما أخبرني به العم عامر لكنني ذهبت.

جلستُ بجوار الشجرة ناظراً إلي المنزل وأفكر، ماذا علي أن أفعل هل أكمل بالسعي ورائها والإيمان بحبها لعلها لا تكون مثلهم، لعلها تكون بالفعل تلك الفاتنة التي تزورني كل ليلة وأنتظرها بأحلامي. تلك الفتاة الذي قررت أن أكمل حياتي معها وحدنا بعيداً عن أعين الناس.

لا أعلم أمتوهم أنا أم لعلي متمسك بخيط نور أحمله بداخلي ينير طريق رجوعي للمنزل بعد رحيل نور الشمس عني، وينير ظلام غرفتي القابع على صدري وحيداً.

أدركتُ الآن لماذا نظر لي محمود تلك النظرة التي لم أفهمها، لقد فطنتها الآن، كان محمود يعلم ذلك أو حتى يشك به، وخشي أن يكسر بهجتي أو لم يعلم كيف يخبرني بهذا، ماذا سأقول له الآن. أنني أحببتها!

عشقت ما لا يمكنني عشقها!، هل إذا أقسمت له أنني لم أكن أعلم سيُهّون هذا موقفي، على الرغم من أنني أعلم الآن!

أعتقد بأن عليّ إخفاء هذا، حتى أعلم ماذا سأفعل.

*****

-أشجان

قادمة يا أبي.

-اجلسي، أريد أن أتحدث معك قليلاً.

بالطبع يا أبي، ماذا هناك.

-هل هناك شيء جديد لا أعلمه عن سالم، أرى أنه تغير بعض الشيء، تغير مزاجه للأفضل بالطبع حمداً لله، ولكن لا أعلم السروراء ذلك. هل أخبرك شيئاً؟.

ترددتْ قليلاً ثم قالت: لا يا أبي لم يخبرني أي شيء.

دخلتُ حاملاً على كتفي إسراء من الخارج وقلت:

السلام عليكم.

فرد الجميع السلام.

ثم أكملت، وجدت تلك القردة الصغيرة تلعب حتى الآن بالخارج وكانت متسخة هكذا.

- فقالت إسراء ببراءة: نعم والعم سالم لعب معي أيضاً.

أخذتها أشجان بعد أن ضحكنا جميعاً لتبدل ملابسها المتسخة، وجلستُ مع أبي وبدأ يبتسم بوجهي قائلاً: لقد كبرت يا سالم، أتذكر كل أوقات حياتك أمامي.

طفل جميل عيناه عسليتان كأمه، بشرته بيضاء وشعره أسود قاتم، وضحكته رائعه مثلي أنا.

ابتسم وأكمل بالطبع أكذب، أنت مثل أمك تماما في كل شيء، تلك النعمة التي منَّ بها الله عليّ، ثم رحلت عني وتركتني معك أنت وأخيك لأكون أباً وأماً.

- هل كنت تحبها يا أبي؟

- أحبها!.

لم أحب أحد مثلها يا بني، لقد كانت أجمل ما رأت عيني، كانت نجمة من السماء تحيا معي تحت سقف واحد، لن أقول أنني كنت أحبها بل سأخبرك أنني لازلت أعشقها..

دخلت أشجان مصاحبة لصوت اهتزاز الأكواب.

- لقد أحضرت الشاي.

فرد أبي: تعالي يا أشجان كنت أحكي لسالم عن أمه رحمها الله، وكم كانت امرأة لم يكن لها مثيل، أتعلمون سأخبركم شيئاً يضحكني في كل مرة أتذكره.

بعد وفاتها حدثتني أختي أن أتزوج مرة أخرى، حتى يتسنى لي أن أتابع عملي جيداً ويكون هناك أحد بالمنزل، حتى من أجل سالم لكي يجد من يرعاه.

أتذكر أنني قاطعتها لمدة أسبوعين بسبب ذلك، لم أتحمل أن أبتسم بوجة امرأة أخرى حتى ولو رحلت عني وتركت لي ولد عنيد مثلك استنفذ كل طاقتي حتى أصبح رجلاً هكذا..

- بالطبع ولدك الحبيب لأنه الصغير أما أنا فلا شيء، قالها علي وهو يضحك قادماً من الخارج، وضع نظارته جانباً ثم شاركنا الجلوس والضحك ونحن نجلس سوياً على مائدة العشاء.

أعتقد أنه لو سألني أحدهم ماذا تحب أكثر من نفسك، لن أتردد بأن أجيبه أهلي بالطبع إن الحياة لا تسوي شيئاً بدون عائلة، أن تمتلك عائلة مثل عائلتي هي أكبر نعمه بالحياة، ولكنه أيضا شيئاً يجعلك قلقاً، حينما تشعر أن كابوساً سيحل بالجميع تعلم أنه قادم وأنه لا يوجد إلا الظلام الدائم،،، نعم أنا خائف!.

وعلى الرغم من ذلك فقلبي قد عشق فتاة من جالبي ذلك الظلام، حتى ولو كنت أشعر بأنها غيرهم فستظل منهم على أي حال. ولكن علىّ أن أكتشف ذلك حتى أرتاح.

ولكن ماذا لو كانت مثلهم؟.

دعني أؤمن بقلبي حتى النهاية.

*****

كان يوما صافياً، أو أعتقد أنه كان كذلك لأنني أحب يوم الجمعة، فيمكنني أن أراه جميلاً في كل مرة.

ومرة أخرى أسير إلى تلك الشجرة العجوز محتفظاً بوشاحها، وأستند إلى جذع الشجرة وأنتظر ظهورها.

لم يمر الكثير من الوقت حتى استنشقت تلك الرائحة الفائحة مرة أخرى، يبدو أنها هى، كما توقعت تماماً أنها ستأتي هنا ولا أعلم كيف توقعت ذلك ولكنه حدث، ماذا سأفعل؟.

كانت تتمشى وحدها وبيدها بعض اللوحات والأقلام حينما ناديت: سيدتي.

– ماذا هناك، من أنت؟. قالتها في خوفٍ ورهبة.

– لا تقلقي.أنا.... تلعثم، وتردد، الكثير من الكلمات المتضاربة لا أعلم ماذا أقول، نعم الوشاح.

أخرجته من جيبي وأضفت: نسيتي هذا عندي في المحل منذ أسبوع أو أكثر، وبحثت عنك كثيراً حتى أعيده لكنني لم أستطع أن أجدك، هل تجلسين هنا دوماً.!؟

- فردت بعد أن شعرت ببعض الطمأنينة، عادةً آتي إلى ذلك المكان وأرسم بعض اللوحات، فأنا أشعر فيه بالراحة.

- أتعلمين عندما كنت صغيراً، كنت آتي إلى هنا وأشاهد الغروب من عند تلك الشجرة كان مشهداً ساحراً بحق.

- هل تعرفين أيضاً لما سميت بالشجرة العجوز؟

- فأجابت وفي عينيها الفضول: لا ليس عندي فكرة.

- لقد كان هناك امرأة تجلـ.....

قالت مقاطعة لحديثي فجأة: يجب أن أرحل الآن، لا يمكنني المكوث أكثر من ذلك، فقلد شارفت الشمس على الرحيل.

ثم بدأت بالتقدم نحو المنزل بعدما أعطيتها الوشاح.

وبعد أن أدارت ظهرها عني وانطلقت سألتها: لم تخبريني ما اسمك، أنا سالم بالمناسبة.

نظرت نحوي وابتسمت وهي تكمل طريقها: وأنا مايا.

قلت في قرارة نفسي سأراكي ثانيةً يا مايا.

ثم اختفت فجأة مع ظهور الغروب، ويكأن الشمس قد لملمت خيوطها كلها وكانت هي إحداهم، أو أنها كانت الشمس ذاتها..

يبدو أنني كنت آتي في أوقات خاطئة طيلة الأسبوع الماضي، وعلى ما يبدو أيضاً أن حبي ليوم الجمعة لم يكن هباءً هكذا بل له أسباب.

حككتُ ذقني ثم همهمت: مايا، على الأقل عرفت ما اسمها.

سأذهب إلى محمود، فأنا أشعر أنني أشتاق إليه.

*****

بينما أسير في طريق عودتي، مستنيراً بضي خفيف من قمر منتصف الشهر، وتغمرني سعادة أول لقاء يجمع بين عاشق ومعشوقته، نعم هكذا فقط سأصفه وسأدع لعقلك الحرية في تفسير كم كان ممتعاً.

نظرت جواري فوجدت 'عبدالهادي' وقد ظهرت عليه بعض علامات المرض، بالطبع لم أستطع أن أسأله ماذا بك؟، وقررت السير في طريقي لكنه هو من استوقفني.

اعترض طريقي وبدأ يحرك عصاته بشكل معين لم أفهمه بالتراب، ثم قال بعض الكلمات الغير مفهومة محدقاً بعيني ويكأنه كان يريد إخباري بشيءٍ ما.

كان يقول عليه أبي دائماً أنه يعلم أشياء لا نعلمها أو أنه يمتلك مَزِيَّةً معينة لا نعلم ماهيتها، لم أصدق ذلك في أي مرة سمعتها سابقاً أو تحديداً لم أهتم، لكنني شعرت بشيء غريب تجاهه في تلك المرة.

نظر صوب عينى مرة أخرى ثم حرك عصاته بشكل عشوائي كما لو كان يمحو ما كتبه سابقاً، إن كان قد فعل.

ثم رحل مردداً.

سنموت، سنمووت مرة أخرى.

لم أكن أتمنى أن أنهي اليوم بتلك الطريقة، لكن ذلك الرجل جعلني أستفيق للحظة وأشك في أنني من الممكن أن أكون منساقاً حول قلبي بشكل أعمى، بأنني قد أكون عاشقاً مجنوناً قد تخلى عن كل شيء ويسعى فقط لاقتناص حبيبته.

لا. إنها غيرهم، أثق بذلك.

أكملت سيري حتى وصلت بيت محمود ثم بدأت بالطرق، فخرج لي طفلٌ صغيراً، قلت له: أين العم محمود يا حبيبي.

فدخل مسرعاً ينادي عليه، خرج محمود حاملاً طفلة صغيرة على يديه، سلم عليّ ودعاني للدخول فقلت له: لا سآتيك في وقتٍ لاحق فلابد أن عندك ضيوف الآن.

- إنه أخو زوجتي قدم إلينا من قرية مجاورة ليزورنا هو وأطفاله وزوجته.. تبادلنا المزاح قليلاً في حديقة المنزل بعد ان خرج يسير معي. ثم قلت له: سآتيك مرة ثانية علي أية حال سلام.

ودعته ورحلت.

كان محمود مثل أخي تماماً بل مثل نفسي، كنت أعلم ما يشعر به لذا تركته يلهو مع الأطفال قليلاً، تلك النعمة التي حُرم منها هو وزوجته وبالرغم من ذلك لم يحاول أن يتزوج عليها أبداً كما يفعل الكثير ممن يمرون بنفس ظروفه، كان يحبها حقاً رغم كل شيء.

لم أنس أن أناجي ربي وأدعوه دوماً أن يرزقه بطفل يهب له كل ذاك الحب الذي أراه بعينيه في كل مرة يلاعب أطفال، أعانك الله يا محمود وأكرمك على قدر إخلاصك ونقاء قلبك يا صاحبي، أما عني فسأخبرك لاحقاً بما حدث.

أريد أن أعود الآن إلى المنزل وأحتسي بعض القهوة، داعياً الله أن لا يكون عمي 'راضي' قد جاء إلينا هو وريم كما هو المعتاد بيوم الجمعة، لأنني أخشى من كلمات أبي التابعة لذلك اللقاء.

فقط سأستمتع بذلك اليوم الرائع وأترك التفكير قليلاً ويحدث أياً كان ما يا يحدث، فأنا سعـــــيد بطريقة لم أعهدها سابقاً ولا أريد أي شيء أن يفسد ذلك اليوم يكفي عبدالهادي.

*****

- مايا. أين أمك؟

- أعتقد أنها تطهو بعض الطعام. أتريد شيئاً يا أبي؟.

- نعم تعالي.

اسمعيني جيداً يا حبيبتي، أنتي تعلمين أننا لسنا ببلدنا، وأننا ليس مرحب بنا هنا حتى نمتلك دولتنا قريباً، لذا فأريدك أن لا تخرجي للسوق مرة أخرى، فأنا أخشى أن يلاحظك أحد، لو أردتي شيئا فقط أخبريني وسوف آتيك به بطريقتي.

أنتي ابنتي الوحيدة وأنا أخشى عليك حقاً، لقد اقتربنا يا حبيبتي قريباً سنمتلك ما نستحق!.

- فردت بهدوء: كما تريد يا أبي لكنني سأظل أشاهد الغروب من عند تلك الشجرة القريبة من المنزل اتفقنا؟

- حسناً، كما تريدين.

يا شيرا، أين الطعام، أضاف نوعام.

- قادمة يا نوعام الآن.

- سأخرج قليلاً يا أبي قبل أن يحل الظلام.

- لا تبتعدي يا مايا.

كما اتفقنا تماماً لا تقلق، ردت وهي تترجل للخارج متجاهلة نداء أمها للعشاء، أضافت شيرا وهي تجلس على مائدة الطعام: فتاة عنيدة.

خرجتُ في نفس الموعد تقريباً الذي لاقيتها فيه البارحة، كنتُ أعلم أنها تحب أن تشاهد الغروب من هنا، جيد أنني قد جهزت نفسي وجلبت طاقة زهور لأهديها إياها.

خرجتُ وبيدي الزهور وحينما رأيتها قادمة نحوي قدّمتها لها مباشرة وقلت: قطفتهم من أجلك بيدي.

فابتسمت بخجل.

لا يوجد امرأة لا تعشق الزهور ولا يوجد امرأة لا تحب المفاجآت.

ولكنها استعادت وعيها مرة أخرى وقالت: لا يمكنني أن أقبل هذا منك، فأنا حتى لا أعرفك.

قلت بثقة: حسناً سنتحدث سوياً لبعض الوقت وبعد أن ننتهي يمكنك أن تقرري، كنت أشعر أنها تبادلني شعور لطيف كما أفعل أنا.

- والآن ألا تريدين سماع قصة الشجرة؟.

ضحكت فكان كما لو أن النهار قد ازداد نوراً على نوره في تلك اللحظة التي ابتمست بها، سرحتُ بعينيها وشعرت بأنني قد نسيت كل شيء كنت سأخبرها به.

- فقالت لي بعدما أطلت النظر بها: ماذا ألن تخبرني؟.

- لا بالطبع سأفعل ولكنك ستعطيني شيئاً في المقابل، نظرت إليّ بتعجب ثم أومأت برأسها كي أكمل، دون أن تعرف ما هو! يبدو أنها كانت تسايرني.

وبدأتُ بسرد قصة طويلة لم أسمعها قبل ذلك ولا أعلم من أين جئت بها، ولكنني كنت مندمجاً جداً وكنت أطير فرحاً حينما كنت أسمع صوت ضحكها على بعض المواقف من قصتي التي تشعبت إلى مجموعة من الحَكَايا التي لا أعرف كيف ألّفتها حقيقةً لقد جعلت مني حكاءاً، لقد جعلت مني عاشقاً، فلو أصبحت عاشقاً مثلي ذات يوم ستعلم أن بإمكانك أن تكون كل شئ من أجل معشوقك ليس فقط حكّاءاً.

مر الوقت وبدأت الشمس تغيب مرة أخرى.

قلت لها: والآن جاء الوقت كي تعطيني ما اشترطه عليك.

سألتني متعجبة: ماذا قد يكون ذلك.

- ذلك الوشاح الذي تركته عندي، أريد أن أحتفظ به.

- ولماذا أعطيه لك، بأية مناسبة قد أفعل ذلك.

نظرت لها بثقة وقلت: بمناسبة أنني أحبك.

فقامت في عجلة وسقط منها وشاحها، وتحول وجهها إلى لون دموي، وكانت الابتسامة تعلو وجهها والخجل يتناثر منه أيضاً، لملمت أطراف ردائها الطويل في خجل ورحلت.

فأخذت الوشاح مرة أخرى، واستنشقت رائحتها العطرة منتظراً أن أزورها مع غروبٍ آخر.

رفعت صوتى وهي راحلة: أتمني أن تعجبك الزهور.

*****

- ماذا أخّرك يا مايا ألم يخبرك أباك ألا تتأخري خارجاً؟
- آسفة يا أمي. فقط لم أنتبه للوقت قليلاً.
- وأين وشاحك؟
- ردت مدعية الثبات: أعتقد أنه قد سقط مني خارجاً.
- أياً كان فلتدخلي غرفتك الآن، لأن أبيك قادم مع بعض الضيوف.
- من يا أمي.؟
- لا لم يخبرني اذهبي الآن.
- حسناً سأدخل وأرسم قليلاً ولو احتجت مساعدةً مني فلتناديني.

تحركت حامدة ربها أن أمها لم تلحظ ذلك الخجل الذي اعتلى وجهها ولم يرحل عنها حتى عندما عادت للمنزل، وأنها نجحت بإخفاء الورد قبل أن تلاحظها أمها.

أغلقت باباها وبدأت تذوب بين رسوماتها، ذلك الشيء الوحيد الذي طالما أحبته وشعرت بأنه رفيقها في وسط الوحدة التي تشعر بها.

تكررت لقاءتنا ونحن نشاهد الغروب سوياً ونتحدث في كل شيء يخطر ببالنا، ولكن لم يتطرق أحداً منا أن يسأل الآخر من هو، ما هو ماضيه، أو ماذا يفعل في حياته، فقط كنا سعداء، أو مسحورين بشكل أدق، ولكننا على الأقل كنا سعداء وراضين بأن أحداً لا يعلم بعلاقتنا.

لم أخبر أحداً بذلك الجنون وأجزم أنها لم تفعل هي الأخرى. أتعلم تلك اللحظة التي تشعر فيها بأنك لا تريد شيئاً سوى أن تجلس مع شخص تتحدث معه بأي حديث مهما كانت تفاهته، تحدق معه في اللاشيء، يشاركك لحظاتك السعيدة، يخرجك عن الحياة وعن الواقع الذي يحيط بك، يجعلك تتوقف عن التفكير، عن الصراع بداخلك. يجعلك تتوقف عن الحياة أو بصيغة أدق، يجعلك تبدّلها بحياة أخرى يشاركك هو فيها تفاصيلها.

كانت هي كل ذلك لي، وكنت لها كذلك أيضاً.

فلماذا نسأل عن أشياء قد تفسد متعتنا إذاً!

لكن الحزن قادم لا محالة، أشعر به كلما أفارقها متجهاً نحو البيت.

ولكن حتى يأتي سنحاول الاستمتاع بتلك الأوقات قدر ما نستطيع، يبدو أننا اتفقنا علي ذلك دون أن نتحدث عنه.

الفصـــل الثالث

إن الإنسان هو في نهاية الأمر قضية.

غسان كنفاني.

ليلة عائلية ثانيةً.

مرة أخرى، يزورنا عمي وريم بغير مناسبة، أو أعتقد أن أبي هو من يحاول في كل مرة اختلاق أي شيء كي يدعوهما للسهر معنا.

وككل مرة يأتون بها. عمي وأبي يتحدثون عن الماضي، نفس القصص والحكايا التي حفظتها عن ظهر قلب، ولكنهم يضحكون عليها مرة أخرى كأنها أول مرة.

وفي ظل تلك الجلسة المليئة بالضحك والمسامرة والكثير من أكواب الشاي الفارغة، خرجت لأستنشق بعض الهواء في الشرفة قليلاً، وليتني لم أفعل ذلك!.

- أهلا كيف حالك يا ريم قلتها حينما فوجئت بها هي وأشجان خارجاً.

ابتَسَمَت بخجل..

- لماذا تجلسين هنا أنت وأشجان هكذا؟

ردت عليّ أشجان وهي تضحك: فقط نريد أن نجلس بعيداً عن الذكريات المكررة فنحن سئمنا ذلك في الحقيقة، ولكن لا تخبرهم حتى لا ينزعجوا.

- لن أقول شيئاً بالطبع فلقد خرجت لنفس السبب أيضاً.. تبادلنا الضحكات.

شكرت الظروف التي جعلتني أهرب لعدم وجود مقعد لي بالخارج، فأخبرتهم مدعياً التكاسل أنني كنت أريد أن أجلس معهم لكنني لن أحمل

كرسياً من الداخل إلي هنا، ثم أضفت مداعباً: أن الجو بارد الليلة، عليكما الدخول.

ودعتهم ثم مشيت نحو غرفتي كي أخرج من تلك الورطة، فكلما كنت أراها كنت أشعر بالخجل، فهي حقاً لا تعوض وأنا أحترمها جداً، تباً لقلبي اللعين الذي لم يفكر فيها للحظة..

مرت الساعتين ببطئ شديد حتى رحيلهم.

ثم جاءت أشجان إليَّ وأحضرت كوباً من الشاي وقالت وهي تبتسم: ماذا ألم تفكر ثانيةً؟

- نظرت لها في عجب وقلت: أفكر في ماذا؟.

- ريم، إنها تحبك، كما أنها جميلة ويأتيها الكثير من العرسان ولكنها ترفضهم، يبدو أنها لا زالت متمسكة باتفاق أبيك وعمك سابقاً، ولن تجد مثلها صدقني.

- سألتها باستنكار: أنت لا تتحدثين بجدية صحيح!، ويكأنني لم أخبرك أي شيء سابقاً.

- أتقصد تلك الفتاة التي حدثتني عنها والتي لم تعرف اسمها حتى!، أو من أين هي ولم تراها غير مرة واحدة، ماذا أستعيش تبحث عن أوهام!

بصراحة خشيت أن أخبرها أنني عرفت اسمها وتقريباً عرفت من هي، فلم أمتلك الشجاعة لفعل شيئاً كهذا، كيف يمكنني حتى أن أحدثها في أمر كهذا.

وحتى أتخلص من كلامها، أخبرتها أنني سأفكر مرة أخرى.

وبالفعل فكرت.

ولكنني فكرت بأنني يجب أن أعلم من هي حقيقةً، وماذا عليّ أن أفعل تجاهها، يجب أن أحدثها في ذلك، لن نبقى هكذا دوماً، إلى متى سنظل نتقابل في الخفاء قبل أن يكتشف أحد ذلك.

مرت فترة كبيرة على آخر مرة رأيت فيها محمود، وعلى الرغم من تأخر الوقت إلا أنني قررت الذهاب إليه.

*****

- امي. من أولائك الذين بالمكتب مع أبي.؟

- إنهم أصدقاء أبيك يتحدثون حول شيء مهم على ما يبدو ولا أعلم ما هو، دعيني الآن فأنا مشغولة يا مايا، أخبرتها "شيرا" ذلك وهي تجهز بعض الخضار للطعام غداً.

تركتها بالمطبخ ثم اقتربت من الغرفة التي يوجد بها الضيوف، وحاولت الاستماع لما يقولون، لكنها لم تستطع أن تتبين بشكل واضح ما يُهمهمون عنه.

بينما كانت واقفة تسترق السمع، أخذها تفكيرها لوهلة بعيداً حيث فكرت في سالم وأنه ماذا سيحدث لتلك العلاقة المختفية بين الظلمات، ولا يمكن لأحد أن يعرفها فهي لا تعلم نهاية ذلك، لم تعرف ماذا ستفعل إذا وضعت في اختيار بين سالم، بيتها، أهلها، ودولتها الباطلة والتي كانت تعلم تماماً أنها كذلك.

هي أيضاً تريد أن تعرف الكثير عن سالم، لتحدد موقفها من تلك العلاقة، لكنها لا تعلم أعليها أن تخبره بذلك أم تنتظر، مترددة جداً.

- مايا ماذا تفعلين؟

ارتبكت وردت في عجلة: لا شيء يا أمي، ثم ذهبت مسرعة إلى الغرفة.

وبعد دقائق من رحيل الغرباء، قرع أبوها باب الغرفة.

فأذنت بالدخول.

- أبي كيف حالك، تفضل.

- قال بتريث بعد أن اتخذ مقعداً بجوارها: أخبرتني أمك بما فعلت.

فهمّت أن تتحدث..

فأوقفها ثم أكمل، لا تقولي أي شيء، يجب أن تعرفي أننا سيكون لنا كيان يا مايا، سنمتلك حياة ونعيش هاهنا في أرضنا تلك، كنت سأخبرك علي أية حال أن هذا سيكون قريباً.

وبدأ يلتف حول أذنيها كالأفعى ويملأ رأسها بتاريخ مزور، أفكار كاذبة وأمال خبيثة قد تم اختلاقها.

كنت أنتظر وقتاً مناسبا كي أخبرك ذلك يا طفلتي لكنك قد أوجدته، وبالمناسبة أمك "شيرا"، تعلم كل ذلك هي فقط تحاول الحفاظ على سرية هذا الأمر كما ستفعلين أنت تماماً.

وستعدينني بذلك صحيح؟

- أعدك يا أبي.

يجول بعقلها الكثير والكثير من الأفكار، تخيلت ذلك الدمار الذي قد يحل على الجميع إثر ذلك، ولكنها سلمت بوقوعه، فالمخطط أكبر منها بكثير

كما أنهم أهلها وقومها ومستقبلهم القذر الذي سينشأ على الدماء والدمار ولا يمكنها أن تقف أمامهم.

وحتى لو حكت لسالم فلا تعلم ما ستكون ردة فعلة تجاه ذلك، وهي لا تريده أن يفعل شيئا، إنها اقتنعت تماماً بأحقية ذلك المكان لهم، فلقد كانت تعيش مع داهية يدعى نوعام وثعبان تدعي شيرا.

فلم يكن نوعام رئيساً لتلك المنظمة الصغيرة في تلك المنطقة من فراغ، بل لأنه كان شراً يسير على قدمين.

ولكنها ستحكي له حتى يكون سبباً لتعرف عنه المزيد، وتشعرة أن علاقتهما أصبحت في خطر الآن أكثر مما مضى.

بدأت ترسم شكلًا لدولتها الجديدة الكاذبة على لوحاتها وتتخيل كيف سيكون شكلها وتلون سماء مسروقة وبيوت منهوبة وأرض دامية بألوان خادعة تجعلها تبني خيالاً مريضاً وتعيش داخله، ثم تعرض لوحاتها على أبيها وأمها ليعيشوا معها أيضاً تلك الجريمة.

كان عليها أن تلون تلك اللوحات المشؤمة بلون الدماء التي ستسيل للدفاع عن أرض الزيتون بدلاً من الألوان الزيتية الكاذبة.

*****

بعد أن ضمني بين زراعيه باشتياقٍ وحب قال: أخبرني كيف حالك يا سالم، ما أخبارك لقد اشتقت إليك؟.

- يا لها من صدفة، كان مينا يزور محمود على ما يبدو حينما ذهبت إليه.

صديقنا القديم الذي رحل إلى سوريا منذ زمن هو وأمه، التي كان يتكفل بها ليعيش مع خالته هناك.

أجبته بترحاب: الحمدلله يا مينا أنا بخير، أخبرني أنت ماذا أعادك بعد كل تلك السنين؟

– أمي، فلقد اشتاقت لبيتها القديم، كما أنها لم تتحمل أن تجلس هناك بعد وفاة خالتي.

– وكيف حالها الآن.

– بخير وأرسلت سلامها إليكما بالمناسبة.

– رددت عليه: بالطبع سنزورها فنحن نشتاق لها حقاً، ويجب أن نعزيها في وفاة خالتك.

– سأكون بالانتظار يا صاحبي، ثم أكمل بنبرة جدية: المهم الآن أريد أن أطمئن إلى أين وصل الصهاينة ماذا فعلوا إلى الآن؟!.

– أجابه محمود: لا تقلق يا صاحبي سنجلس ونتحدث كثيراً، ولكن عليك أن ترتاح ولا تترك أمك وحدها هكذا، اذهب الآن وسنجلس لاحقاً.

أومأ إليه بالموافقة ثم قام وهو ينفث زفيرة بقلق وسلم علينا، وأوصله محمود للخارج، ثم عاد.

جلس على الكرسي المقابل لي ثم قال: مر الكثير ولم نجلس هكذا يا سالم.

– سألته فجأة: لماذا أخفيت عني يا محمود؟

– رد متعجباً: ماذا تقصد.!

– كنت تعلم من هي تلك الفتاة التي أعجبت بها ولم تخبرني.

– في الحقيقة لم أكن متأكداً، لكنني تمنيت ألا تراها ثانيةً واعتقدت ذلك فعلاً، قلت لنفسي أنك ستنساها قريباً حينما تختفي عنك.

– فقلت ممتعضاً: بل عرفت من هى يا محمود، إنها ابنة أحدهم كما توقعت أنت.

– هل تأكدت من ذلك، وكيف عرفت من الأساس؟

– إنه موضوع طويل سأحكية لك في وقت آخر، أنا حتى لا أعرف الكثير عنها.

– سكتُ هنيهةً ثم أردفت: أنت تعلم أنني أثق بك لذا سأعترف يا محمود أنا أحبها وأظن أن..

– قاطعني بصوت هادر: ماذا تقول يا سالم إنهم كلهم مثل بعضهم، لا يختلفون عن بعض، إنك تحب من تعتدي علينا كيف لك ذلك!

– حاولت تهدئته قائلاً: اسمعني يا محمود أنا أحاول اكتشاف ذلك حالياً، أنت تعلم كم أنني أحب وطني وكم أكره احتلالهم لنا، فقط سأحاول أن أعرف إن كانت مثلهم أم ماذا؟!.

– صدقني يا سالم لن تكون النهاية كما تريدها، قال مشفقاً عليّ.

– عدني فقط أنك ستكون معي دوماً يا محمود.

نظر إليّ في حيرة ثم قال متردداً: أعدك يا أخي.

*****

- أعددت لك كوب الشاي يا حبيبي.

- شكراً يا أشجان، ألم يأت سالم بعد.

- أجبته: لا لم يأت بعد، بالمناسبة كنت أتحدث مع ريم حينما كانت هنا، وقالت لي أن هناك عريس جاءها ويبدو أن أباها يحاول إقناعها به، لكنها لازالت ترفض ولا نعلم متى سيعقل أخوك.

- قال في ضيق: لا أعلم ماذا يريد صدقيني، لقد سئمت الحديث إليه في ذلك الموضوع، فقط أريد أن أعرف ماذا يجول بعقله، ليتني أعرف ذلك.

حدثت نفسي قائلة أعليَّ أن أخبرك يا علي أم أحفظ سره الذي ائتمنني عليه، أخشى أن يفقد ثقته بي للأبد، ولا يخبرني شيئاً مرة أخرى وفي نفس الوقت أتمنى له ريم، لا أعلم ماذا عليَّ أن أفعل.

- قلت محاولة تغير ذلك الموضوع: وماذا عن العمل يا علي؟، كنت أعرف أنه سيتحدث كثيراً عندما أسأل عن ذلك، حتى ولو كنت أكره تلك الأمور ولكنني أريد الهروب من التحدث عن سالم بأي طريقة.

- استنشق بعض الهواء ووضع كوب الشاي جانباً ثم قال: بخير، المحل يسير جيداً، تحدثنا مع تاجر جديد اليوم علي كمية كبيرة من الزيتون ثم إننا...

واستمر بالحديث كطفل يخرج ما بداخله لأمه، كما لو كنت أماً للبيت بأكمله، إنه لمن الجيد أن تستمع إلى شخص وتعيره الاهتمام، حتى ولو لم تفهم كلمة مما يقوله فنحن جميعًا نحتاج إلى ذلك.

الجميع يحتاج أن يتحدث، أن يخبر أحد بكل أسراره أن يبوح بكل ما يملك من كلمات، أن ينقل ثقل يومه الذي على عاتقه إلى أحدهم حتى يعينه على التقدم، الجميع يريد التقدم.!

*****

خرجت ريم في منتصف النهار متجهة إلى حور، لتتسامر معها قليلاً كما اعتادتا فعل ذلك دوماً.

قرَعَت الباب، قابلتها حور وبيدها بعض الخضروات.

- ريم حبيبتي أهلاً تفضلي لقد اشتقت إليك.

هيا تعالي معي إلى المطبخ فلدينا الكثير لنتحدث عنه، والكثير من الخضار لنقطعها، أطلقت ريم ضحكة، ثم تبعتها إلى المطبخ.

التقطت ريم السكينة تقطع الجزر بينما كانت حور تغسل الأرز. سألت ريم: كيف حال محمود؟

- كالعادة يخرج صباحاً يعمل في قطف الزيتون حتى يحن الليل، ويرجع منهكاً تماماً، حقاً أشفق عليه.

كما أنني كنت سأبكي المرة السابقة التي كان بها أخي وزوجته هنا، حينما حمل ابنة أخي الصغيرة وكان يلاعبها ويحتضنها حتى رحلوا.

بعدما رحلوا جلست معه، وطلبت منه أن يتزوج.

- نظرت لها ريم في صدمة، ماذا كيف تفعلين ذلك!

- وضعت طبق الأرز عن يدها، وامتلأت عينها بالدموع وقالت: لأني أحبه يا ريم، أريده أن يكون سعيدا حتى ولو كان مع غيري، إنها السنة الرابعة من الزواج ولا يوجد أي شيء يخبرنا بأنه قد يكون هناك أمل..

- احتضنتها وقالت: إنه بأمر الله يا حور، ويوماً ما سترزقون طفلاً جميلاً مثلك إن شاء الله صدقيني.

- جففت حور دموعها وهدأت قليلاً، ثم قالت: وأنتِ ألازلتِ تفكرين في سالم؟

- أمسكت ريم بالسكين مرة أخرى وعادت لتقطيع الخضار وأجابتها: لم أحب غيره منذ كنا أطفالاً، وأنا مؤمنة تماماً بأننا لبعضنا وسنتزوج مهما حدث، لكنني لا أعرف ماذا ينتظر، لا أعلم إذا كان لا يريدني أو أنه يفكر في أخرى أو ماذا يشغل تفكيره عني، كما أن أبي يضغط عليّ كثيراً كي أقبل بأحد هؤلاء الذين يريدون الزواج بي، ونفذت مني حججي ولازلت منتظرة أن يتحرك، أتعلمين في كل مرة أقابلة أشعر أنه يحاول الهروب مني!

كانت حور تعلم تماماً أنه لا يفكر بها، وتشك أنه يهوى فتاة أخرى، لكنها لم ترد أن تخبرها ذلك حتى لا تجرحها.

- ساخطةً قالت حور: ولماذا لا تحاولين أن تبتعدي عنه؟

- حاولت صدقيني، لكنني فشلت، في كل مرة أحاول فعل ذلك هناك شيء ما يمنعني لا أعلم ما هو ذلك، ويكأنني أؤمن أنه سيكون لي على أية حال.

– قالت حور بعد أن قامت تضع قدر من الماء على النار: دعينا نغير ذلك الموضوع وظلتا تتحدثان عن فتيات أخريات في القرية وتلقيان بالنكات وتضحكان، حتى جهزت ريم معها الطعام وأخبرتها أن عليها الرحيل كي لاتترك أبيها وحدة.

– قبلتها وقالت: سأنتظرك لتأتي ثانية، لا تغيبي عليّ هكذا ابتسمت وودعتها.

سارت ريم بين طرقات القرية متجهة إلى البيت ثم رأت سالم بالصدفة في طريقها، كان لتوه قد فرغ من العمل ولكنه كان متجها إلى أطراف القرية.

يبدو أنه رآها، فالتفت متوتراً وقال: أهلاً يا ريم أين كنت؟!

– ردت في هدوء: كنت عند حور أجلس معها قليلاً، وأين تذهب أنت في ذلك الوقت خارجاً هكذا؟.

– تلألأ بحديثه ثم قال: فقط كنتُ أريد أن أسير قليلاً وحدي، هيا دعيني أوصلك للبيت، كان يدعو أن ترفض عرضه، حتى يتسنى له الذهاب إلى مايا فلقد اتفق أن يقابلها في ذلك اليوم حينما تقابلا آخر مرة، لكنها لم تفعل ذلك.

سار معها حتى أوصلها البيت، فوجد عمه كان لتوه يدخل المنزل.

– يا أبي!. نادت ريم

– ريم لماذا تأخرت هكذا.!

– جلست مع أشجان ويبدو أننا قد أطلنا قليلاً.

– أهلاً يا سالم هيا، تعال نحتسي بعض الشاي سوياً.

– فأجابه مسرعاً: لا ياعمي شكراً فأنا مرهق من العمل اليوم وأريد أن أرتاح، وقال في أعماقه بل أريد أن لا أفوت الموعد اليوم.

– رد متمسكاً برأيه: لا بل ستأكل معي اليوم، هيا يا ريم حضري الطعام ثم نحتسي الشاي بعدها، وجذبه من يده إلى الداخل هيا تفضل.

يبدو أنه لا مفر سيجلس تلك الساعات يحدثه عن طفولته وعن التجارة وأشياء كتلك التي لا يحبها سالم، وعليه أن يسايره بالحديث ويضحك على كلامه مجاملةً، ظل يردد في قرارة نفسه، يا رباه من دعا عليّ اليوم!، أي حظ هذا، لن أرى مايا اليوم أبداً ولن أحدثها وأعلم ما هى قصتها بالضبط، لقد ضاع اليوم يا عمي، لذا سأحاول أن أستمتع بذلك الوقت المجبور عليه.

في تلك الأحيان، وقفت مايا قلقة حتى شارفت الشمس على الغروب وهى لا تعلم ماذا أخّره إلى ذلك الوقت!، وتفكر بنفس ما كان يفكر به تقريباً، فلقد أرادت أن تخرج من تلك المرحلة التي لا تملك تعريفاً لها غير سعادة مزورة، وحينما فقدت الأمل بمجيئه، رحلت قبل أن يحل الليل، آملةً أن تجد أجوبة لتساؤلاتها في وقت آخر.

ذهبت للبيت يعلوها اليأس والحيرة، دخلت غرفتها مباشرة ثم التقطت ورقة وقلم وبدأت تسطر بعض الكلمات، أخذت الرسالة وخرجت دون أن يشعر بها أحد ووضعتها تحت حجارة بجوار الشجرة، ثم رجعت.

*****

ذهبت في اليوم التالي على أمل اللقاء ولكنها لم تأت، لاحظت ورقة ملفوفة ملونة، فالتقطها مسرعًا نعم مؤكد أنها من مايا!.

- سنفتح الصندوق ثانية يا جدي صحيح؟..

- نعم أيها الفضولي سأقرأها لك، فتحت الصندوق مرة أخرى وأخرجت رسالتها الملونة.

كان خطها مترددًا أو خائف لا أعلم، كأنها تكتب بالخفاء أو تريد أن تكتب بسرعة.

عزيزي سالم:

لقد افتقدتك اليوم، انتظرتك كثيراً على أمل أن أراك لكنك لم تأت، على الأغلب أنت تقرأ تلك الرسالة في اليوم التالي، لذا فأنا أردت أن أخبرك أنني لن آتي اليوم، فلقد ذهبنا في رحلة سفر ليومين إلى أحد أقاربنا، صدقني هذا ليس بيدي فأنا كنت أريد أن أراك اليوم، لكنني لم أستطع، فأبي وأمي لن يئمنا علىّ هنا وحدي، كما أنني لا أريدهم أن يشكوا بي، أمتلك الكثير من الأسئلة التي أريد أن أحدثك عنها.

أشتاق للقائنا القادم.

نعم كنت سأنسى أن أخبرك ذلك لقد كنت قلقة عليك.

أحبك.

معشوقتك مايا.

أخذت الرسالة ورحلت يائساً.

قررت حينها أن أذهب إلى الخالة تريز، فمنذ قدومها هي ومينا من حلب وأنا لم أزرها، ولم أُعزّها حتى في أختها.

كما أنني أريد أن أغير مزاجي قليلاً، وأشعر أن الدنيا لازالت بخير.

مررت على محمود لأخذه في طريقي، وبالطبع لم أحدثه في شيء مما حدث، حتى أعلم ماذا عليّ أن أخبره تحديداً.

رحب بنا مينا ثم دخلنا إلى صحن الدار، كانت الخالة تريز جالسة مبتسمة وفرحة برؤيتنا ووجهها بشوش كما اعتدناها دائماً، دنونا من يدها وقبلناها ثم عزّيناها في فقدان أختها.

نظرت لنا وعلى وجهها نفس الابتسامة ولكن دموعها كانت تسيل بين سبل وجهها التي أحدثتها الزمن.

- قلت لها: ماذا يبكيك يا أمي.؟!

- قالت: أخاف عليكم يا بنى، أخشى من أن لا نجتمع هكذا ثانية.

نظرنا لبعضنا البعض ولا نعلم ماذا نخبرها أو بماذا نطمئنها، فالجميع يعلم أن كلامها صحيح.

ثم أكملت بعد صمتنا قائلةً: يا أولادي لقد كبرت تحت سماء فلسطين، طالما ركضت بين أراضيها، حضرت الكثير من مواسم قطف الزيتون، تزوجت هنا، وهنا ربيت ابني وقبر زوجي هنا، أتعلمون كم سبت نورٍ حضرته بكنيسة القيامة، أنا حقاً لا أتذكر لكثرتهم.! أخاف أن يأتي اليوم الذي لا يستطيع فيه

أبنائي وأحفادي أن يفعلوا ذلك، أخاف حقاً من ألا أرى أحفادي أو أن لا يكون لي أحفاد أصلاً.

– قبّلت رأسها ونظرت لها محاولاً بث بعض الطمأنينة لها وقلت: لا تقلقي يا أمي سندافع عن تلك الأرض مهما كلفنا الأمر حتى ولو كان ذلك بدمائنا، فقط لا توقفي الدعاء.

– تحدث محمود محاولاً أن يزيل حزنها: يا خالة بالمناسبة حور تبلغك السلام وتقول لك ستأتيك في أقرب فرصة، وأعدت لك بعض الكعك وأرسلته معي. لكن لا أنصحك أن تأكليه فلن يعجبك حتماً، ولا تخبريها بذلك أرجوك.

– ضحكت، وأزالت دموعها. أنا متأكدة من أنه سيعجبني لا تُقحم أنت نفسك بيننا.

ثم ضحكنا جميعا، وحكى محمود بعض المواقف عن طعام حور الذي كان هو منفذنا الوحيد من ذلك الحزن.

ثم استأذنا منها وأخذنا مينا إلى الخارج وجلسنا سوياً خارج المنزل نتسامر.

ثم مر عبدالهادي لكنه تلك المرة كان صامتاً، لم يقل أي شيء فقط يتمتم ببعض الكلمات التي لا نفهمها وهو يسير في طريقه.

– عبدالهادي!، لقد نسيته قال مينا مستعيداً ذكرياته.

– رد محمود: حتى عبدالهادي يا مينا لا يشعر بالطمأنينة هو الآخر. يسير بين الطرقات ويهتف سنموت سنموت، ولا أحد يفهم لماذا أصبح يقول ذلك لعله يشعر بقدوم شيء سيء مثلنا تماماً.

طال حديثنا ولكنه كان منحصراً كله في ذلك الموضوع القميء الذي لا ينتهي، تلك الحياة المظلمة القادمة قريباً.

الصهاينة يقوون كل يوم أكثر من الذي قبله، يجمعون نفسهم من كل مكان، يرتبون جلسات سرية، ولا أحد يعلم فيما يفكرون، نحن مقيدون لا يمكننا أن نفعل شئيًا كل ما نتحدث عنه فقط، يجلعنا نزداد إحباطاً على إحباط، يشعرنا بأننا ضعفاء.

ولكن على الرغم من ذلك وإن كان كل ما نملكه هو أنفسنا فقط، فنحن قادرون على بذلها إن احتجنا إلى ذلك فنحن لسنا ضعفاء، نحن أقوياء بعزيمتنا أقوياء بحقنا، أقوياء بحبنا لتلك الأرض.

وبعد مرور ذلك الوقت البطئ اتخذنا طريقنا أنا ومحمود لنعود للبيت، كنت أخشى أن يحدثني محمود في أي شيء عن مايا، لذا كنت أحاول اختلاق المواضيع لأحدثه فيها، حتى شارفنا على الوصول لبيته.

– التفت قبل أن يتركني وقال: سالم أرجو أن تكون قد حددت موقفك من تلك الفتاة، لن أسألك عن أي شئ حتى تأتي أنت وتخبرني أنك قد انتهيت من ذلك.

لم أتفوه بأي كلمة واكتفيت فقط بالإيماء موافقاً، ثم سلمت عليه وافترقنا.

كنت أدعو منذ تركته حتى وصلت البيت، أو تحديداً حتى غرقت بنومي راجيا أن يمر هذان اليومان بسرعة، لا أعلم لماذا ألكي أهرب إليها من ذلك الواقع المتعب، أم لكي أحدد حقيقة علاقتنا تلك!

*****

طال رحيلها يا عمر ولم يقتصر على يومين كما أخبرتني بل طال بعدها عني لأسبوع، كتبت إليها الكثير من الرسائل التي كم أردت أن تقرأها، لكنني ولسبب ما لم أعطها إياهم واكتفيت بأن أخفي عنها ذلك.

- ولماذا يا جدي فعلت ذلك؟

- لا أعرف، فقط شعرت أنني لا أريد أن أريها إياهم.

- أريد أن تقرأ لي بعضاً من تلك الرسائل.

قابلته بالرفض، وطلبت منه أن لا يحدثني في ذلك مرة أخرى، ستظل تلك الرسائل مدفونة بداخل هذا الصندوق ولن تقرأ أبداً.

- حسناً يا جدي ومتى رأيتها إذاً!، قال عمر متداركاً غضبي.

كان قد مر أسبوع كامل على رحيلها وأنا على نفس الوتيرة، أنتظر حتى الغروب بعد أن أنهي عملي مع أبي ثم أرحل.

وبينما كنت أنتظر يوماً ما حتى وجدتها تتقدم نحوي، فأثارت في نفسي بهجة وسرور غرقت بهما، فلقد كنت أشتاق إلى تلك الأحاسيس، وأزالت عن قلبي الغصة فابتسمت للقائها كما كنت أفعل دوماً.

جلست بجواري أنظر لها فقط، قالت بخجل كان منها معهود: ماذا!، أستظل هكذا ناظراً إليّ.!

– أأخبرتك يوماً أنني كنت أحلم بك وأنتظرك قبل رؤيتك حتى، أعتقد أنني لم أفعل.

– أبعدت عينيها عني بعدما أصابها الخجل، ثم أعادتهم وهي باسمة تكشف عن أسنانها اللامعة قائلة: اسمع يا سالم هناك الكثير من الأسئلة تجول بخاطري وأريد أن أعرفها.

– فانتبهت لحديثها، كما لو كنت لتوي أفقت من غيبوبة النظر إليها وأنا أيضاً أريد أن أعرف عنك أكثر، حتى نعلم ماذا سيحمل لنا المستقبل وكيف يمكننا أن نرسم بأقلام حبنا لوحات مشرقة لحياتنا القادمة.

من أنت يا مايا، وكيف ظهرت بحياتي هكذا؟

– أَخَذتْ شهيقاً عميقا ثم قالت: حسناً. أنا من اليهود العرب ولذلك تجد أن لغتي الأم هى العربية، وأبي يدعى نوعام، نزحنا لفلسطين هنا منذ فترة قريبة بعدما سافرنا إلى الكثير من البلدان، أبي من أثرى اليهود الموجودون هنا ولذلك كان من السهل أن نشتري ذلك البيت الذي نقيم به الآن ونمكث به أنا وأبي وأمي، فأنا لا أمتلك أخوة كما تري. ثم إنني.....!

كانت تثرثر وتسهب بالكثير وأنا أختلق النظر إليها والاهتمام بما تقول، لكن عقلي كان يفكر في أمر آخر تماماً. إنه نوعام كما أخبرني العم عامر بالفعل، إنه الشيطان الذي جاء كي يخرجنا من قريتنا، من بيتنا ويفرقنا عن أهلنا فكيف عشقت ابنته، يا رباه ماذا دهاني!.

– استوقفتها عن التراهات التي أخذت تتحدث عنها قائلاً: أتعلمين من أنا يا مايا أحقاً تعرفين هويتي!.

أنا عربي مسلم اسمي هو سالم عبد القادر، أقطن ذلك المكان منذ كنت طفلا وبه ولدت وكبرت وبنيت بتلك الأرض آمالي وأحلامي هنا دُفنت أمي وأجدادي، وهنا كل أصدقائي، أهلي، حياتي يا مايا كل شئ يتعلق بي وأتعلق به يوجد بذلك المكان.

هلا أخبرتني أرجوك ماذا لو شعرت بأن أحدهم قد قدم ليفجعك في تصوراتك وأحلامك، أن يكدر عليك لذائذك، ويجعلك تحيين بين خيالات سوداء بعدما كانت تزينها الألوان، ماذا ستشعرين لو علمت أن أحدهم قد قدم ليخفي عن عينيك شمس الحرية واضعاً برقع الظلام على جبينك، ماذا ستفعلين لو أحببت من جاء ليعذبك؟!.

- أطرقت برأسها بعيداً ثم قالت بصوت بريء يشوبه الحزن: ولكنني لم آت لذلك يا سالم، لقد أحببتك مثلما فعلت أنت أيضاً، كل ما أريده حقاً هو أن نصل إلى حل يمكننا به أن نكون سوياً، أعلم أن الأمر يبدو معقداً لكنني أحاول التفكير في ذلك منذ فترة.

كما أنه ماذا سيحدث يا سالم لو عاش اليهود هنا؟!

- أتقصدين الكيان الصهيوني، الذي ينوي سحق كل من يقف أمامه لتحقيق أهدافه القذرة، وسرقته لأراضينا بغير وجه حق؟!

- فردت بنفس نبرة الصوت الحزين: ولكنني لست صهوينية يا سالم، لا أؤمن بالدم ولا أحبذ الحرب فقط الهدوء هو كل ما أريد.

- وماذا عن أباك اذاً؟!

- أنا لست مثل أبي، ولكنه سيظل أبي على أي حال.

ثم قامت من مجلسها تهم بالرحيل، وقبل أن ترحل أعطتني لوحة ملفوفة وقالت: لقد رسمتها من أجلك لا تفتحها إلا حينما تكون وحدك، واعلم أنني سأحاول وسأفكر فيما يمكننا فعله ولن أستسلم، ظللتُ أراقب أثرها حتى اختفت، ولم نحدد حتى موعد اللقاء القادم.

*****

فتحت الصندوق مرة أخرى لأريها لعمر، كانت رسمة لي في شبابي ووضعت في الخلفية شمس تغرب تيمناً بأوقات مقابلتنا، وأضافت بمؤخرة اللوحة بالجانب الأيسر توقيعها، كما كتبت بجانبه أحبك.

رحلت هائماً، مشتت الأفكار كما أتيت تماماً، انتابني شعور بأنها ستقول لي ذلك وأخبرت به محمود سابقاً، لكنني لست مرتاحاً أيضاً.

كيف سيكون شكلي لو علم أبي أو أخي، مينا، خالتي تريز، العم عامر..

ماذا سأخبرهم! أنني عشقت يهودية!، عشقت ابنة الطاغية الذي يحيا بيننا منتظراً ذلك اليوم الذي يأخذ فيه بيوتنا، أرضنا ومستقبلنا جميعاً.

لم أجد بداً عن الذهاب لمحمود ثانيةً، لأخفف ذلك الحمل الذي على كاهلي، لا أعلم لماذا لا يكتمل حظي بالدنيا.

طرقت الباب بتؤده.

- سالم كيف حالك يا صاحبي تفضل، قالها وهو يغمز بعينيه أحسبه كان يخبرني بأن لا أفعل.

- فسايرته: لا اعذرني يا صديقي فأنا متعب اليوم جداً، هلا ترجلت معي قليلاً.

- بالطبع يا أخي، وقبل أن يغلق الباب علا بصوته أنا خارج يا حور..

ترجلنا سوياً، ثم سألته عن سبب تلك الغمزة.

- فقال: كانت ريم بالداخل ساهرة مع حور، ولم أرد أن أضعك بموقف لن تحبه.

- خير ما صنعت يا محمود.

- والآن أخبرني لماذا تعلو الحيرة والأرهاق وجهك هل قابلتها.

- نعم.

- ثم ماذا؟

- لا شيء كما توقعت قالت لي أنها ليست مثل أبيها، وأنها تحبني كما أحبها تماماً وكأنها قد زادت عليّ حملاً أكثر مما أحمل، أنا فعلاً كنت أتمنى لو لم أرها، أنت تعلم كم أكره ذلك الكيان، كم أكره هؤلاء القوم.!

ولكنني أحبها بكل حمق وسخف، أحبها ولسوء الحظ أنها تحبني أيضاً كما تخبرني. وأخبرتني أيضاً أنها لا تريد النزاع ولا تهوى الحروب، بل تريدنا أن نهنأ بحياتنا في هدوء.

- وهل أنت مقتنع بذلك يا سالم؟

- بالطبع لا، لن نستسلم قبل أن يخرج الطغاة من أرضنا.

- إذاً فعليك أن تخرج الطغاة من قلبك أولاً يا صديقي.

اذهب إلى البيت واسترح، ولنتحدث لاحقاً ولكن اعلم أنني لا أؤيدك بذلك ولولا أني أعلم حبك لبلدك وأهلك لم خاطبتك ثانية ولقاطعتك ما حييت، هيا اذهب الآن ولنلتق بوقتٍ أخر.

سرت وحيداً مرة أخرى، مثقلاً بهموم أكثر من تلك التي كنت أتكبد عنائها.

آلمني محمود هو الآخر وفكرت في أن أخبر أشجان، لكنني أخشى ردة فعلها، أنا بحاجة إلى من أشاطره الرأي ولا أجد، دوماً ما كنت متردداً حتى في تلك المرة الوحيدة التي أحببت بها لم أكن واثقاً أعليّ فعل ذلك أم لا.! وظللت أخاطب قلبي اللعين متعجباً، وموبخاً له لماذا لم أعشق ريم؟!.

دخلت البيت متأخراً ومحاولاً إخفاء اللوحة من يدي، فقابلتني أشجان وبخفة ظل قالت: لماذا تتسلل هكذا كالأشباح!؟.

- ترعدت قليلا ثم قلت: أشجان! كنت لا أريد أن أزعجكم فقط والآن دعيني أذهب حتى أنام.

- ألن تأكل يا سالم؟

- رددت وأنا أدلف الغرفة: لا لقد أكلت عند محمود، تصبحين على خير، قبّلي إسراء من أجلي صباحاً.

وحينما أغلقت باب الغرفة خلفي تنفست الصعداء، وحمدت الله أنني استطعت إخفاء تلك اللوحة، حتى ولو أثار ذلك في نفس أشجان شكاً ولكنني بخير الآن.

*****

تأكدت من إحكام غلق باب غرفتها وأنشأت تفكر فيما يمكن فعله كيف ستحل تلك المعضلة الصعبة، أي كفة سترجح بميزان متعادل الوزن أي طرف ستثقله هيَّ وتجبره أن يكون هو الأرجح.!

أأهلها وحلمهم أهم، حتى ولو كانوا دمويين بمرادهم والذي قد يشمل حياة سالم كلها، أم أن الحب أقوى، ولو كان ذلك. فماذا عليها أن تفعل؟

إنها لا يمكنها أن تحكي لأحد، فحياتها فارغة كلوحة بيضاء تلتقطها لتشرع بالرسم، ففي كل مرة لا تجد بداً من أن ترسم، حتى ولو كانت لا تعلم ماذا سترسم تحديداً ولكن ذلك سيساعدها على الخروج من مأزق لا منفذ منه.

- مايا، هل أنت هنا؟ نادت شيرا من خارج الغرفة.

- نعم تعالي يا أمي.

- دلفت شيرا تحمل بيدها كوب عصير وبعض الشطائر، جلست بجوارها وقالت بطريقتها المداعبة: ما بال حبيبتي فيما تفكر.

- ردت في كلل محاولة أن تخفي حقيقة حالها: لا شيء يا أمي أنا بخير، فقط لا أمتلك أصدقاء وأجلس وحدى في ملل كثيراً.

- قالت شيرا بمكر: سيكون لك قريباً لا تقلقي، كما أنني أحمل لك خبر سيسعدك بكل تأكيد، ويزيل عنك هم الوحدة ذلك ولكني سأؤجله لشيء ما في نفسي وأخبرك به لاحقاً!.

- تبسمت بعدم اهتمام وأومأت برأسها موافقة وقالت: هلا تركتني وحدي يا أمي أريد أن أجلس وحدي قليلاً.

قبّلتها من رأسها بعدما أثار رد فعلها بنفس أمها ما أثاره، ثم خرجت.

ذهبت شيرا إلى غرفة نوعام والذي كان مُكباً على بعض الأوراق يراجعها.

- جلست على كرسي بجانبة وقالت: نوعام أريد أن أحدثك في أمر هام.

- رد في فتور: ماذا هنالك يا شيرا!

- لا أعرف ماذا يحدث مع مايا تحديداً، إنها ليست بحال جيدة ولا أعلم ماذا يجول بخاطرها، أشعر بأنها تخفي شيئاً ما ولكنها تخبرني بأنها فقط الوحدة وعدم وجود رفيقات معها هو ما يجعلها كذلك.!

- بالضبط يا شيرا كما أخبرتك أنها تجلس وحدها منذ فترة طويلة وذلك قد ترك أثر بنفسها، كما أنني لم أعد أرسلها لتشتري أي لازم من لاوازم البيت وحدها لأني أخشى عليها أن يصيبها مكروه، فتلك لم تصبح أرضنا بعد!، فقط أتركها تخرج تتمشي قرب البيت كل يوم حتى لا تختنق.

تغيرت لهجته واتخذت مسحة من السعادة وأكمل: اتركيها ولا تضغطي عليها لقد اقترب جلاء شمس دولتنا وخروجها من مهدها، فجميع اليهود من شتى بقاع الأرض يقدمون إلى هنا في هجرات دائمة، كما أننا حصلنا على الكثير من التسهيلات والمساعدات مؤخراً، ولكن الشيء الوحيد الذي يقلقني هو ردة الفعل التي لا أتوقعها من العرب، سنترك ذلك للأيام على أي حال.

- قالت وهي غير مرتاحة: حسناً يا نوعام سأذهب لأحضر لك بعض الشاي.

لا تضعي سكر يا شيرا فأريد أن أقلل منه بعض الشيء، ولا تنسي أن بعض من أصدقائي سيأتون غداً!

*****

- كيف حال ابنتي الجميلة ريم، ما الذي يوقظك باكراً كذلك؟!

- الحمدلله يا أبي، ماذا عنك أنت وعن العمل!؟

- كل شيء يسير علي خير حال يا ابنتي، أخبريني أنت ألم تراجعي نفسك مرة أخرى حول إبراهيم، يا حبيبتي إنه يريدك وطلبك مني مراراً وتكراراً ولا أعرف ماذا أخبره.؟!

- ولكنني أخبرتك يا أبي مسبقاً أنني لا أريده ولا أهواه، أريد أن أبقى معك هنا ولا أتركك وحدك أبداً.

- قال بحنو: أنت ابنتي الوحيدة يا ريم وأريد أن أزوجك وأطمئن عليك يا صغيرتي، فبعد وفاة أمك بعدما أنجبت أخاك بلال بعامين، ثم وفاته هو بعدها إثر تلك الحمى اللعينة التي أصابته ولم يعد لي غيرك، أريد أن أراك سعيدة قبل أن أنتقل إلى جوارهما أنا الآخر.

- اغرورقت عيناها بالدموع وقالت بصوت ناحب: لا تقل ذلك مرة أخرى، فأنا لا يمكنني العيش بدونك، ولا تصفو لي الحياة بعدك أبداً، ثم إنني أريد سالم يا أبي أليس هذا ما اتفقت عليه أنت وعمي عبدالقادر منذ صغرنا أن نكون لبعضنا، فماذا حدث الآنّ!؟

- قال في ضجر: ولكنه لم يحدثني في ذلك فماذا عليّ أن أفعل، هل أطلب أنا يده أم ماذا!.

هدأ قليلاً ثم أردف: يا فتاة إنك أجمل بنت في القرية، وأكثرهن خلقاً، إن قدرك عظيم يا ريم، وإذا رغبت يوماً بالزواج أتاك أجمل الشباب وأنبلهم، لذا فأريدك أن تعيدي التفكير مرةً أخرى لو كنت تحبينني فعلاً.

- هزت رأسها موافقة وقالت: أعدك يا أبي، والآن دعني أذهب حتى أعد لك بعض الطعام قبل خروجك للعمل، ثم احتضنته وذهبت للمطبخ، مقررةً وعازمةً على أن لا تحاول حتى أن تسمح لعقلها أن يفكر بشخصٍ غير سالم، ولا لقلبها أن يتحرك لغيره إنها مؤمنة تماماً بأنهما سيكونان سوياً للأبد، كأنها سافرت للمستقبل ورأت منزل يجمعها بحبيبها وأطفال يلهون حولهم.

حتى وإن كانت لا تعلم ما الذي يجول بخاطره تحديداً، ولا فيما يفكر، لكنها متيقنة من حبها وإيمانها به الذي سيظل مشتعلاً بداخلها ولن تتطفئه الأيام أبداً.

*****

لم يفارقني صداعي ذلك اليوم من كثرة التساؤلات عن ماذا سأفعل، كيف سأخرج من تلك المشكلة وأنا لست بخائن أو متخلٍ عن حب حياتي وأملي!. كيف سأحقق ذلك، ماذا عساني أن أفعل!.

وبينما كنت جالساً أفكر حتى دخل أبي ولم يكن سعيداً أبداً كما لاحظت، بدا ذلك بوضوح حينما ألقى العصا من يده جانباً بقوة مردداً: أستغفرك ربي وأتوب إليك.!

- ماذا هناك يا أبي قلتها بفضول؟

– الصهيانة يا ولدي. حتى التجارة لم يدعوها لنا لم يكفهم أخذهم أرضنا وسرقتها من بين أيدينا لا بل يريدون كل شيء.

– ماذا فعلوا ثانية!

– قال وقد عقد حاجبية غضباً: جمع أحدهم المحاصيل من الأراضي بأسعار تضاعفنا وكأنه يحاول محاربتنا.

– سألته عن من هو ذلك الشخص، فرد العم عامر بطريقة تلميح لما أخبرني به سابقاً.

– إنه نوعام يا ولدي. نوعام.. وصمتنا جميعاً.

يا رباه مرة أخرى تتعقد الأمور وتتوالي المصائب، لم أكن بحاجه إلى ذلك أيضاً فكفى عليّ ما أنا فيه!.

فطمأنت أبي أن كل الأمور ستصبح على ما يرام. وأخبرته أني سأخرج قليلاً، وسأعود إليه ثانيةً، كنت أريد أن أختلي بنفسي قليلاً حتى أتأني أكثر، عليّ أن أصل لحل.

وبعد فترة طويلة من التفكير، لم أجد سوى حل مجنون واحد سأبذل قصارى جهدي في سبيل تنفيذه، عليّ أن أقنعها بأن تنضم إليّ، سأحاول أن أخبرها أن تلك هي بيوتنا وأرضنا منذ قديم الأزل وأشرح لها تفصيلاً ماذا حدث حتى آلت إلى ذلك الأمور، أعلم تماماً أنها تدرك كل هذا ولكنني سأحاول أن أقنعها بأن تنضم إليّ، فلعلها تدرك أنها تعيش بين ثعابين وتنضم إلى جانبي بالنهاية.

أُوقن تماماً أن هذا صعب وقد يرقى إلى درجة المستحيل ولكنني سأحاول، ولن أستسلم فليس بيدي شيئاً آخر لأفعله.

رجعت إلى أبي وأخي، حتى أساعدهم في حل المصيبة التي ارتكبها ذلك الشيطان الذي يدعي نوعام.

وقررت أن لا أذهب إليها اليوم حتى أتمكن من ترتيب الأحداث التاريخية، التي أدت إلى وجودهم بيننا بكل مكان، وتجهيز ما عليّ أن أخبرها إياه لأنفذ مرادي.

– تقابلنا بعدها بيومين ولكنني لم أكن شغوفاً بلقائها ككل مرة وعلى ما يبدو أنها لاحظت ذلك، لذا حاولت أن أسرع تلك المرة ثم أخبرتها أنني سأغيب لفترة مسافراً لبعض أغراض العمل، فوافقتني على مضض.!

سأشتاق إليك، قالتها وافترق كل منا إلى جهته.

الفصـــل الرابع

ما أشد حيرتي بين ما أريد وما أستطيع.

_نجيب محفوظ..

- ولماذا اعتقدت أن بإمكانك فعل ذلك يا جدي؟

- لم أمتلك حلاً آخر يا ولدي، لا أريد أن أخسر حبي، ولا أستطيع أن أتنازل عن ذرة تراب من أرضي.

كما أن تلك الأفعال التي قام بها نوعام اللعين قد وترتني أكثر وضيقت عليّ الخناق، لذا فحاولت الغياب عنها لبعض الوقت، حتى أتجهز لإقناعها، بجهل تام عما ستكون النتيجة.

*****

مر ما يكثر عن الأسبوع ولم أذهب لمقابلتها، حتى شعرت أنه قد حان الوقت، بعدما رتّبت ما سأخبرها به تحديداً، لأزيل عباءة التضليل التي وضعها الصهيانة على أكتاف الحقيقة.!

كنت جالساً للفطور بعدما خرج أبي وعلي للعمل قبلي كالعادة، ثم دخلت أشجان وجلست بجانبي وقالت بطريقة أعلم من خلالها أنها تريد أن تتحدث عن شيءٍ ما: صباح الخير يا سالم.

- صباح الخير أشجان. ماذا هناك!.

- فضحكت قائلة: هناك خبران أحدهما جيد والآخر سيء ماذا تريد أن تسمع أولاً.!

- فقلت لها مداعباً: فلتقولي الجيد فقط.

- حسناً فأنا أحمل بين أحشائي طفلاً أخر، على ما يبدو أنه ولد.

- انفرجت أساريري وقلت مهللاً، ما شاء الله، كيف عرفت ذلك.

- الخالة سميرة زوجة العم عامر أخبرتني أنني حامل بولد، لا أعرف كيف تعرف تلك الأمور لكنها تعلم، ولقد اتفقنا أنا وعلي بأن نسميه سالم، لا أريده أن يكون جامد القرار مثل عمه ولكننا قررنا ذلك.

- وضعت الخبز من يدي وقلت: أشتم رائحة الخبر السيء في طريقتك، قولي يا أشجان.

- إن ريم ابنة عمك جاءها عريس إنه..

- قاطعت كلامها وقلت لها: لست بمزاج للتحدث عن ذلك الأمر الآن.

- فردت بعنف: أستظل تحيا تبحث عن أوهام.

- نظرت لها بحدة، ليست أوهام يا أشجان.

وقفت من مجلسي ثم قررت الذهاب قبل أن تحاول معرفة ما إذا عرفتها أم لا!، وإلى ما وصلت تحديداً في تلك القصة الغريبة.

شرعت أمشي تحت شمس الصباح محاولاً التغاضي عن التفكير بأي أمر يزعجني اليوم، فسوف أرى مايا بعد بضع ساعات، ولا أريد أن أشغل نفسي إلا بها.

ولكني أثناء ترجلي لاحظت شيئاً غريباً على الأرض فجثوت على ركبتي أنظر ما ذلك الشيء المرسوم بشكلٍ غريب، لم أستطع تحديد حقيقته فتجاهلته وحاولت محوه بقدمي ثم رحلت في سبيلي.

دخلت المحل وحييت العم عامر.

- صباح الخير يا أبي، أين علي!.

- إنه بالمخزن يا بني.

- حسناً سأذهب إليه.

كان منهمكاً بالعمل، قلت مبتسماً: السلام عليكم يا أبا سالم.

- وضع أحد أشولة البضائع عن يده، والتفت مبتسماً هو الآخر وعليكم السلام يا عم سالم، على الرغم أننا لم نتأكد بعد.

- لا تقلق إنه سالم إن شاء الله ولكن علينا النظر مرة أخرى في اسمه، فضحك حتى بانت نواجزه.

- فأردفت قائلاً: اجلس أريد أن أعرف ماذا سنفعل حيال أمر نوعام ذاك، لأنني لم أستطع أن أسأل أباك عن هذا حتى لا أعكر مزاجه.

- لا تقلق، لقد زرت بعض أصدقائنا من القرى المجاورة واتفقت معهم على صفقه جيدة، بعدما أطلعتهم على الوضع الذي وضعنا به ذلك اللعين، وسيُحل ذلك الأمر قريباً إن شاء الله.

فقلت بداخلي: آه لو علمت أنني سأذهب لمقابلة ابنته اليوم يا علي.

استمررت بمسايرته وهو يتحدث عن القلق الذي أصبح يجتاح الناس بكل أنحاء فلسطين، وعن أن الوضع أصبح سيئاً جداً، وقال: أنه قد سمع أن هناك حربًا أهلية على مايبدو.

كانت قريتنا بمنأى قليلاً عن تلك الأحداث، ولكن قريباً ستشتعل نار الصهاينة التي أوقدها لهم هتلر سابقاً في كل أنحاء وطننا الغالي، ولن تترك على إثر حدوثها أخضرًا ولا يابس، سيعيد الزمان نفسه بأدوار متبادلة، فسيكون اليهود هم هتلر في قتلهم وسلبهم الفلسطنين كل ما يملكون بوحشية وظلم.

*****

بعدما أنهى محمود فطوره، تسلّم الباب وخرج للعمل ببال مشغول حول سالم وعلاقته بتلك الفتاة.

- محمود، نادته حور وهي تركض خلفه.

- توقف ثم التفت اليها، ماذا هناك يا حور!

- قالت بحنو ورقة: نسيت نظارتك على المنضدة يا حبيبي، وخشيت أن تعاني بدونها اليوم في العمل، وأردفت مداعبةً كما أنني أعلم أنها تليق بوجهك، وأنا أريدك جميلاً، مهنداماً طول الوقت.

- وماذا ستفيد النظارة بوجهٍ قمحّي اللون، كبير الأنف مثلي.

- لوت شفتيها وقالت: لا تقل هذا فأنا أراك أحلى الرجال، وأقسم أنك أقرب البشر لقلبي.

قبّلها وشكرها على صنيعها، وبينما هو يودعها مرةً أخرى إذ قابلتهم ريم كانت في طريقها إلى حور لتجلس معها بعض الوقت كما اعتادوا.

- حور كيف حالك؟

- صباح الخير يا محمود.

- رد محمود مرحباً بريم ثم قال: هيا فلتأخذي حور وتذهبا للمنزل، لتعدا الغداء، ريم نسيت أن أخبرك شيئاً هاماً، لا تدعي حور تطبخ اليوم فمعدتي قد اكتفت.

- غضبت حور بطريقتها الطفولية البريئة ثم قالت له: اذهب إذاً الآن وإلا أخذت تلك النظارة ثانية، وضحكوا جميعاً عدا حور ثم افترقوا.

وصلت حور وريم المنزل بعد فترة من الحديث حول مقادير بعض الطبخات، ثم دلفت حور وخرجت ببعض كسرات الخبز وبواقي الطعام وأطعمت قطط كانت تراعهم على بابها.

- وقالت لريم: هيا ندخل لنكمل حديثنا.

*****

صليتُ العصر، ثم اختلقت بعض الأمور لأرحل، والتي هى عادةً ما تكون أنني سأذهب لمقابلة محمود.

وصلتُ الشجرة العجوز، وجلستُ مستنداً إلى جذعها أعبث بفرع مكسور وأرسم على التراب بعض الأشكال العشوائية.

ظهرت بثوبها الوردي الجميل تتحرك كغزالة رشيقة ممشوقة القوام، حينما كانت تتمايل كان يميل معها كياني بأكمله، كنتُ أتمنى لو استطعت أن أسد عين الشمس التي ضايقتها أشعتها فوضعت يدها على عينيها الساحرتين، وحرمتني من رؤية عينيها تلك الثواني.

اقتربت مني بهدوء وجلست مباعدة عيناها عني، وتعقد حاجبيها سخطاً.

- فقلت لها: ماذا بك؟!.

- لا شيء!، فقد تركتني كأني لا أعني لك شيئا، وحتى لم تخبرني إلى متى ستغيب، ولما ستفعل ذلك من الأساس.

- أمسكت يدها قائلاً: كنت أفكر في حلٍ يجمعنا يا حبيبتي، لن نظل هكذا إلى نهاية عمرنا نريد أن نحظى بمنزل، أطفال وحياة، كما أنني قد

أحضرت لك هدية أتمنى أن تعجبك، وقدمت لها وردة حمراء فائح عطرها، وقلت لها: أتمنى أن تسامحيني على ذلك يا حلوتي.

- أخذت الوردة ووضعتها جانبا وقالت بعدما لمعت عيناها وابتسمت برضا: سأفكر.

فقلت سراً: كم هو سهل مصالحتكم يا بنات حواء.

- وهل توصلت لحل إذاً يا سالم..

- نعم أن تسمعيني!.

- ماذا تعني بأن أسمعك؟.

- سأحكي لك قصة طويلة قليلاً، ولن تكون كلها بتلك المرة وأريدك فقط أن تسمعيني، وبعدها سنقرر سوياً.

- عن ماذا تلك القصة؟

- استشعرت غصةً في صدري وقلت: عن أرض أُغتصبت، وحياة سُرقت. عن فتاة نُهبت مفاتنها وهى لاتزال عروس لم تمس، عن فلسطين..

- تململت بمجلسها، وماذا سيغير هذا من الواقع يا سالم.

- فقط أريدك أن تعديني بأن تنصتي إليَّ يا مايا وبعدها سنقرر.

- أطرقت تفكر قليلا، لأجل حبنا فقط سأفعل حتى أعلم ما نهاية ذلك.

- ستكون نهايته أن نحيا سوياً يا حبيبتي لا تقلقي.

والآن لنبدأ.،،،

لم أكن أريد أن أطيل عليها في بداية الأمر فحدثتها عما حدثني فيه محمود سابقاً، (موسي مونتفيري، قانون تملك الأجانب، قانون الطابو، وعن أن فلسطين كانت معظم أرضها مشاع).

استمَعَت لكل ما أقوله باستسلام كما وعدتني أن تستمع حتى النهاية، وفسرَتْ أنها لم تكن تقاطعني، بأنها لا تعرف تلك الأحداث التاريخية والتي بالطبع قد زُيفت بعقلها، لذا فأرادت أن تسمع تفصيلاً ما أقول.

وكما تعوّدت بكل مرة أن أستمع إلى تفاصيل حياتها التي أحكيها لك تلك يا عمر كما كانت تحكيها لي تماماً حتى ولو كانت روتينية مملة.

كنت أستمع إليها بكل شغف، حينما تخبرني عن أبيها ذلك الثعبان وأمها وهى تدخل عليها الغرفة كثيراً تحاول أن تخرجها من عزلتها، وتخشى عليها أن يصيب عقلها مصاب من كثرة الجلوس وحيدة، وأنها أخبرتها أن هناك مفاجأة تخفيها عنها إلى الآن!. وأن أباها يأتيه الكثير من الضيوف التي لا تعلم منهم إلا القليل من أصدقائه المقربين.

كل شيء تفصيلاً كانت تحكيه عن حياتها، كنت أتلقاه منها بصدر رحب وأخبرك عن لسانها ما كانت تخبرني به.

- وقبل أن نفترق أردت أن أداعبها، فأخبرتها: أنني بورطة حقيقية.
- فردت بخوف: ماذا هناك؟.
- لا أعلم ماذا سنسمي أبناءنا؟.
- فابتسمت قائلة: لقد أخفتني، شعرت أنك مريض أو ما شابه.
- أتخافين عليّ يا مايا حقاً؟!

– احمّرت وجنتاها وقالت: وعلى ماذا سوف أخاف لو لم يكن عليك يا سالم.!؟

– أتعلمين أن وجودك بحياتي فقط كان أكبر أحلامي، فأنت فعلاً لا يمكنك أن تدركي كم أنا سعيد بسماعي ذلك!، إنني في قمة نشوتي أو لعلي قد تخطيت ذلك بكثير!

– لقد أحضرت شيئا أريد أن نوثق به علاقتنا ويظل رباط بيننا إلى النهاية، ما هو ذاك.!

أخرجت من جيبها خاتمين من القماش مصنوعين يدويًا، وقالت: لقد صنعتهما باللون الأحمر لأني أحبه.

هيا أعطني يدك، التقطت يدي وبدأت تربط الخاتم بأصبعي وتلامس أصابعي يدها الناعمة وتسرح عيناي بوجهها القمري الرائع.

– هيا أرني كيف ستربطه بيدي.

كنت قد لاحظت كيف فعلتها، فحاولت تقليدها لكنها كانت ربطة سيئة، فقلت لها مداعباً: أنا أفضل منك بربط تلك الأشياء.

– فقالت وهي تغط بالضحك: نعم ذلك واضح جداً.

اعلمي أنني سأحتفظ به حتى ولو لم أرتده لأنه كما تعلمين لا يصح لرجل أن يتزين بشيء كهذا، لكنه سيظل معي إلى الأبد، وأعدك أنك ستعقدينه بأصبعي ذلك مرة أخرى ولكن حينما يكون ساق الشجرة ذاك باب منزلنا وفروعها تلك التي تظللنا جدرانه، والآن هيا اذهبي، لقد شارف الليل على الهبوط.

- نظرت بامتعاض وقالت: لماذا يأت ذلك الليل بتلك السرعة، سأرحل ولكن عليك أن تقسم على أن لا تغيب عني تلك الفترة مرة أخرى.

- صدقيني لن أفعل ذلك مرة أخرى، لأنني لن أستطيع، ولكننا سنضطر أن نجلعها مرة واحدة في الإسبوع أو مرتين على الأكثر، أخشى أن يلاحظ أحد غيابي.

- عضت شفتها السفلى وقالت: ولكن دائماً.

- فرددت سريعاً: بالطبع.

لا تنسي أن تفكري بأسماء أطفالنا قلتها وهي ترحل.

- حسناً اتفقنا، وأشارت بأصبعها السبابة التي ربطت بها الخاتم القماشي ثم ابتمست وغادرت.

- وإلى تلك الساعة يا عمر لم أرد أن أزعجها وأخبرها عن إلحاح كل من حولي عليّ كي أتزوج ابنة عمي ريم، خاصةً بعدما اقترب أحد الخطّاب منها ويكاد عمي راضي أن يزوجها إياه.

كنت مدخراً كل الجهد والوقت الذي أبذله معها في سبيل أن أوصل لها حقيقة الظلم الذي نتعرض له، وأن أتولى أنا كل الأمور الفرعية والمشاكل التي أواجهها.

هيا ناولني الصندوق أريك الخاتم القماش..

*****

بعدما غربت الشمس وحل الليل لم أذهب مباشرة للبيت، كنت أحتاج للجلوس وحدي بالخارج لبعض الوقت أتمشى في شوارع القرية، وأستنشق رائحة الطبيعة من المزارع والجداول، لليّل هدوء ورونق خاص أحب أن أستمتع به من حين لآخر.

ولكن قررت الذهاب للبيت حينما نال مني التعب والجوع.

وحينما فتحت الباب وجدت محمود ومينا يجلسان في انتظاري.

- أهلاً ظننا أنك قد خُطفت، قال محمود وهو يضحك.

- قلت: يبدو أن أمامنا سهرة طويلة، هيا لنخرج نجلس في الشرفة.

- رد مينا مقاطعاً: لا يا صاحبي فلقد انتظرتك كثيراً كما أنني أترك أمي وحدها، أتيت كي أسلم على العم عبدالقادر وعلي، وأجلس معك لبعض الوقت لكنك قد تأخرت فيجب أن أذهب.

لم أحاول أن أضغط عليه حتى يكمل معنا السهرة، فأنا أعلم أن الخالة تريز وحدها، ولا يصح أن نتركها هكذا.

- قلت لمحمود هيا خذ كوب الشاي خاصتك واذهب للشرفة سأوصل مينا وألحق بك.

تقدمنا أنا ومينا نحو الباب، فسمعنا صوت أشجان من الداخل.

- انتظر يا مينا.

أعطته بعض الخبز والطعام وقالت له: لقد صنعت هذا من أجل الخالة تريز، أبلغها سلامي وقل لها أنني سأقدم إليها في أقرب وقت.

- سأفعل يا أشجان، شكراً لك على تلك الهدية.

- عفواً يا مينا، مع السلامة.

- قالت لي أشجان: هل ستأكل الآن أم ستجلس مع محمود؟.

- لا سأجلس مع محمود وآكل في وقت آخر.

- حسناً قالتها وذهبت.

سحبت كرسي بجوار محمود في الشرفة وقلت: محمود كيف حالك يا أخي.

- حالي أي حال ذاك، هل تسأل عني حتى، مر الكثير من الوقت ولم أرك أيها المشغول.

- بعض المشاغل يا أخي، اعذرني.

- عقد أصابع يده وقال: أتمني أن تكون قد توصلت لحل بعد تلك العزلة، واستعدت عقلك المسلوب، وعدَلت عن تلك الأفكار المجنونة.

- بل بدأت أحدثها يا محمود.

- أصابة الضجر وقال: تحدثها عن ماذا!

- عن أرضنا، حياتنا، وطننا، عن فلسطين.

- قال محمود في غيظ: ألم تعدل عن تلك الفكرة المجنونة بعد. اسمع يا سالم.! لقد تربينا مع بعضنا منذ كنا صغاراً، وأنت أقرب الناس لي وأخي الذي لم يُولد لي من أمي، وتعرف ذلك الكلام جيداً، لكنني لم يخطر ببالي أنك ساذج بتلك الطريقة، أتحسب أن فتاة من هؤلاء الملاعين ستقنع بكلامك بسهولة.

- أخبرتك سابقاً أنها غيرهم يا محمود، وأيضاً أنها تحبني. أدرك تماماً أنه لن يكون سهلاً عليّ ولا عليها، لذلك أريدك أن تعنيني أكثر بكل ما تعلم من تاريخ وحقائق فأنت أعلم مني بذلك.

- سكَتَ هنيهة، ثم قال: حسناً لنعتبر أنك استطعت إقناعها يا سالم ماذا ستفعل تبعاً؟!

- دع ذلك الأمر لوقته فلقد خطّتُ له جيداً.

- رمقني بعينه كما لو كان يعلم أنني لم أخطط لشئ ثم قال: أتمنى يا سالم أن تكون مدركاً لما تفعله، فكما أخبرتك سابقاً القادم أسوأ بكثير.

- قلت له محاولاً تغير سياق الحديث، كلامك أصبح مثل كلام عبدالهادي المجذوب، لقد بدأت أخشى عليك.

- فرد علي بعدما ضحك: أتعني أنني أنا إذاً المجنون وليس أنت!

- ربّت على يده قائلاً: اطمئن يا أخي اطمئن.

أخبرني أنت ماذا ألا يوجد سالم صغير، أو حتى سلمى بالطريق إلينا!

- قال مستسلماً: يبدو أنه لن يكون أبداً.

- لماذا تقول ذلك يا أخي؟!.

- لا أعلم، ولكن لقد مرت الكثير من السنين ونحن على هذا الوضع كما أنني لم أعد أضع أملاً في ذلك الآن. بالمناسبة إن حور بالداخل وريم أيضاً أعانك الله.

- قلت له وأنا أضحك: سأحاول أن أنام قبل أن تقبض عليّ أشجان.

وبعد نصف ساعة تقريباً خرج محمود وأخذ معه حور وريم حتى يوصلوها بطريقهم، وبالطبع ألقيت عليهم التحية بفتور.

ثم أعدّت ليّ أشجان الطعام، ورحلتُ في سبات عميق متملصاً منها بنجاح حمداً لله.

*****

متكأة على سريرها، تنظر للسقف، وتحتضن الوردة التي أعطاها إياها سالم، وتفكر بكلامه الذي أخبرها سابقاً وتتخيله. أن يكونا تحت سقف واحد يحيط بهما الأطفال ويعيشون سوياً إلى نهاية المطاف، حتى يهرما ويموتا سويا.

كانت قد نسيت باب غرفتها مفتوحاً، ولكن لحسن الحظ سمعت صوت وقْع أقدام على الأرض، ففاقت من غفلتها وأخفت الوردة قبل أن تقع بورطة.

- دنت أمها من السرير ثم جلست بجانبها، وقالت: لماذا لا ترسمين كالعادة.

- لا أريد ذلك اليوم، فلستُ بمزاج جيد لذلك.

اعتدلت في جلستها وقالت كما لو كانت تريد أن تعرف كيف تفكر أمها الأقل علماً وذكاءاً عن أبيها: أخبريني يا أمي كيف تتخيلين حياتي بعد ذلك، أعني في الأعوام المقبلة.؟

- شرعت شيرا تملس شعر مايا الأصفر كسلاسل الذهب الحريرية في حنو قائلة: أسبق وأخبرتك كيف كانت حياتي حينما كنت بعمرك، لا أظن ذلك.

كنت مثلك تماماً فتاة عنيدة، ممشوقة القوام، حلوة القسمات. (يقول الجميع دوماً أنك جميلة مثلي).

رآني أباك وأحبني، وحاول التقرب مني الكثير من المرات لكنني كنت أتعمد تجاهله، ولكن حتى لا أكون كاذبة حينما تقدم لخطبتي وعلمت أنه من أثرى اليهود في المنطقة، وأنه سيوفر لي عيشة تناسبني لم أتردد للحظة.

- وهل أحببت أبي يا أمي؟

- قالت بحكمة مفتعلة: حينما تصيرين بعمري ستعلمين أن هناك الكثير من الأشياء الهامة غير تلك الخدعة التي تسمى الحب، فكل ما أتمناه لك يا عزيزتي أن تهنأي مثلي برجل يوفر لك كل ما تتمنين وتقر عينك بأبنائك.

سكتت بعض الوقت تفكر في كلام أمها، الذي تعلم تماماً في قرارة نفسها أنه خطأ.

- فقطعت أمها صمتها وقالت: بالمناسة أتذكرين تلك المفاجأة التي أخبرتك عنها سابقاً.

- نعم تلك التي رفضتي إخباري ماهيتها.

- تماما تلك ما أقصد، لقد تقدم عريس لخطبتك!.

نظرت لها في ذهول كما لو أصابتها صدمة جعلت تتلألأ في حديثها. م.. ماذا تقولين ولكني..!!!

- قالت شيرا وهي مسرورة: انتظري حتى تعلمي من هو، إنه ديفيد يعقوب، كما تعلمين إنه مهندس وشاب جميل، كما أنه ابن صديق أباك المقرب يعقوب عذرا، وهو مناسب لنا تماماً.

- ولكني لا أفكر في ذلك الموضوع الآن يا أمي، قالت ذلك وهي تلوي صدمتها بداخلها، كما أن أنا وديفيد ليس بيننا أية مشاعر ولم يخطر ببالي ولو مرة واحدة، فنحن أصدقاء مذ كنا أطفال.

- قضب وجه شيرا وقالت: ولكنه يحبك ويريدك.

- ردت مايا بعصبية: وماذا عني أنا لا أُكّن له أي إحساس غير الصداقة يا أمي.

- قلت لك أنه لا يوجد ما يسمي بالحب، إن الأموال قادرة على تحويل التعاسة إلى سعادة بكل سهولة، كما أن الحاخام علم بتلك الخطبة وسيأتي لمباركتها. أضافت شيرا قبل أن ترحل اعلمي أن ديفيد سيأتي لزيارتنا قريباً.

- ولكنني..!

تركتها شيرا بوجهٍ عابس وخرجت قبل أن تسمع اعتراضها.

صارت الأمور أسوأ مما كانت عليه، بعدما كانت تفكر فيما ستفعله هي وسالم، أصبحت تفكر فيما عليها أن تفعله لتتخلص من ديفيد أيضاً.

قامت من سريرها وأغلقت الباب، التقطت فرشاتها وشرعت ترسم، علّ ذلك يساعدها على الهدوء.

*****

صحوت من نومي على حُلمٍ مفزع.

عبدالهادي يصفعني على وجهي وهو غاضب ولا أفهم ما به، وحينما أحاول تهدئته يصفعني صفعة أخرى أقوى.

كنت مصاب بحمى في ذلك اليوم فلم أستطع الخروج للعمل، وجلست مع إسراء طوال اليوم، كانت تتدرب على الكتابة وفك الخط، ومكثت أساعدها بذلك.

- عم سالم. أنا حزينة، لأن سارة صديقتي تأتي كل يوم الكتاب وهي تبكي، قالت إسراء ببراءة.

- ولماذا تبكي سارة يا حبيبتي!

- تقول بأن أباها العم راشد اختفي منذ فترة ولا يعلمون مكانه إلى الآن.

- ماذا ولكنني لم أسمع عن ذلك.

- اقتربت إسراء مني وخفضت صوتها وقالت: أخبرتني سارة أنهم لازلوا يخفون ذلك، وأن أمها أخبرتها ألا تخبر أحداً، لعله قد يكون سافر ولم يعلمهم متى سيرجع.!

- فرددت وأنا أربت على ظهرها وأطمئنها: نعم يا حبيبتي من الممكن أن يكون سافر وسرعان ما سيرجع قريباً، والآن هيا أريدك أن تنهي واجباتك كي نلعب قليلاً.

تركتها وخرجت، أستنشق بعض الهواء وأفكر، أين ذهبت يا راشد.

كان راشد يكبرني بسبع سنوات تقريباً، لكنه كان من أكثر الناس دهاءً وذكاءً، وكنت أحترم عقليته وثقافته العليا، وطالما تمنيت أن نكون

أصدقاء لكن لم يكن هناك شيء يجمعنا.

شئ محير بالفعل، لعلي سأتناقش عنه أنا ومحمود لاحقاً، فهو أقرب إليه مني كثيراً.

كنت أتحاشى أشجان طول اليوم، حتى لا تزعجني بحديثها المعهود عن ريم والزواج.

*****

ماذا فعلت يا علي في البضائع لقد نقصت من المخزن!؟ سأل الحاج عبدالقادر بقلق.

- رد علي باتزان: اطمئن يا أبي، عقدت صفقة وأخذت كلمة من بعض أصحاب المزارع في القرى المجاورة.

- أضاف العم عامر في تأن: لا تخشى يا حاج عبدالقادر، خير إن شاء الله.

- فرد أبي في قلق: أتمنى أن يكون.

ومع اقتراب موعد إغلاق المحل، وهم يستعدون للرحيل، فوجئ الجميع بدخول نوعام عليهم.

كاد علي أن ينقض عليه ريثما رآه، ولكن أوقفه الحاج عبدالقادر.

ثم قال له: ماذا تريد يا نوعام!.

- رد بخبث: لا شيء فقط أريد التحدث معك لبعض الدقائق.

- فلتقل ما تريد فأنا مستمع، أما أن أجلس أنا وأنت في مجلس واحد فالموت عليّ أهون.

- ابتسم وقال: لقد أتيت في خير يا شيخ عبدالقادر، سمعت أنك تمر بأزمة في البضائع وأنا يمكنني المساعدة، فأردت أن أقدم لك ما تحتاج كهدية مجانية من جارٍ جديد.

- ضحك الشيخ عبدالقادر وقال: تماماً كان ذلك هو المتوقع منك، إنها طريقتكم منذ قديم الأزل لم يتغير شيء، تسرق بضائعي وعملي ثم تعرضها عليّ بوجه زائف يخفي حقيقتك القذرة خلفه، كما تريدون أن تفعلوا بأرضنا وبيوتنا.

اقترب منه وأردف بحنق. اسمع أيها الثعبان، لقد أخطأت العنوان بتلك المرة إن ذلك المكان الذي وطأته قدمك القذرة هو أشرف من أن يُسمع به صوتك، اعلم أنه لو اعتلاني أنا وأهلي الجوع والفقر، ولم نجد ما يسد رمقنا، وأصبحنا على مشارف الموت، لن نخضع لأمثالك ونسلم لكم كل ما نملك ثم نتعامل معكم كما لو كنتم أصدقائنا وأحبائنا!

إن تلك الطريقة التي دوماً ما تعاملتم بها وستظل هكذا إلى الأبد ولن تخدعنا بالمناسبة ونرضخ لها قيد أنمله، اخرج أيها اللعين من هنا ولا تعد إلى ذلك المكان مرة أخرى وإلا نالك مني ما يؤذيك.

ذهب نوعام جاراً خلفه خيبة أمله وفشله في محاولة اللعب بعقل الحاج عبدالقادر، إنه يعلم تماماً قدر عبدالقادر في القرية وأنه من أحب الناس لأهلها، وإذا تمكن من أن يسيطر عليه، فيكون بذلك قضى مهمته بالاستيلاء على القرية.

ولكن الحاج عبدالقادر كمثل كل رجل شريف حملته أرض فلسطين الكريمة، فهم لعبة نوعام القذرة وأحبط محاولته الفاشلة من أولها.

- قال العم عامر: خير ما قلت يا عبد القادر.

- وقال علي في غضب: ليتك تركتني أوسعه ضربا وألقنه درساً لا ينساه إلى الأبد.

- فرد الحاج عبد القادر: لا يبني نحن لسنا معتدون مثلهم، ولكننا أيضاً لسنا ضِعاف ولسوف يأتي اليوم مهما طال انتظاره، الذي يدرك هؤلاء أن فلسطين الأبيه لن تهوى وتضيع.

أريدك أن تذهب مرة أخرى إلى التجار لتتم معهم الصفقة وتشرف على البضاعة وهي تأتي يا علي، فلا نعلم ماذا يخفيه لنا من ألاعيب أخرى!.

- سأفعل يا أبي بإذن الله، وأنا لا أريدك أن تقلق، فنحن نملك من البضائع ما يكفينا للفترة الحالية.!

ثم انطلقوا في طريقهم.

ويردد الشيخ عبدالقادر اللهم اكشف الغمة حتى وصل البيت.

*****

أخذت الأحوال تسوء أكثر مما مضى يا عمر، وبدء يتردد في الأرجاء أن الصهاينة قد اقتربوا من موعد إعلان دولة على أرض فلسطين بكل خِسّة وتدني، كما علمت أيضاً أنه سيكون هناك ردة فعل عارمة ليست من أبناء فلسطين فقط ولكن من العرب جميعاً.

كان الجميع يتوقع حدوث تلك المهزلة ولكن لم نكن على علم بمتى تحديداً،! انتشر الصهاينة في فلسطين بسرعة جنونية وبدعم ضخم، الهجرات الجماعية والمستوطنات لم تتوقف، ومحاولات السيطرة والإغراء بكل الطرق لم تتوقف أبداً.

الجميع كان وسيظل على علم بأن الصهاينة معتدون كالسوس ينخر ببنيان فلسطين ويريدون أن يطرحونها أرضاً، أو كقطيع من المفترسين هجموا على غزالة تركض وتنفق كل ما تملك من قوة وسرعة من أجل التملص والهروب من قبضتهم.

"إن المشكلة اليهودية يا عمر تكمن في اليهود نفسهم، فهم الذين يؤججون الفتن ويخلقون المشاكل. والصهيونية فكر وسلوك موبوء بالتعصب العنصري، وبعقدة الخوف، الحقد، وأوهام التفوق، والرغبة في التنكيل بالآخر والسيادة عليه.

قال فيهم القرآن الكريم..﴿ كلما أوقدو ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين﴾.

وليس القرآن فقط من تحدث عن دمويتهم، وجرائمهم. وإنما الأنبياء من قبل القرآن والإنجيل اتهموهم بذلك.

يقول فيهم النبي أرميا: مثل خزي اللص إذا وقع، هكذا خزي آل اسرائيل هم وملوكهم ورؤسائهم إذ يقولون للخشب: أنت أبي وللحجر أنت والدي، لأنهم أداروا نحوي قفاهم لا وجههم..

وفي وقت مصيبتهم يقولون لي: قم وخلصنا. فأين آلهتك التي صنعت لنفسك؟! فليقوموا إن استطاعوا أن يخلصوك في وقت بليتك، لأنه قد صارت آلهتك بعدد مدنك، يا يهوذا لما تخاصمونني ؟ كلكم عصيتموني.

يقول الرب: ضربت أبنائكم بلا فائدة إذ لم يقبلوا تأديباً. سيفكم أكل أنبياءكم كأسد مفترس.

إنهم كانوا يقتلون الأنبياء باعتراف أنبياؤهم: (وسيوفهم تأكل أنبيائهم)!.

لقد حاول المفكرون منهم على مر التاريخ أن يعالجوا هذه النفس اليهودية، فلم ينجحوا، بل ولم ينالوا من منهم إلا السخرية والتجريح والافتراء.

- تماماً كما حدث مع صاحبهم: (موسى مندلسون)، والذي كان شعاره: "كن يهوديا في بيتك، ومواطناً مخلصاً في مجتمعك، أحب الآخر كما تحب نفسك"!، فتم التنكيل بسمعته، وتعقبة المعاندون المتعصبون من اليهود يجمعون كتبه ويحرقونها.

- وقبله جاء (باروخ سبينورا): "وكان هو الآخر يؤمن بأن نهاية شقاء اليهود وشقاء العالم بهم لن يكون إلا بتخلصهم من النعرة القومية، والتفضيلية العنصرية التي تفسد ما بينهم وبين الناس، وكان يرى أن التمسك بفلسطين والعودة إلى أرض الأجداد وإقامة الهيكل هي أسطورة بحتة، وأن الله في كل مكان، وجميع الأرض هيكله، وهو يسمع الدعاء من أي بقعة في الأرض"، فما

نال سبينورا إلا السخرية به والحط من شأنه، واتهامه بالكفر، والتآمر على قتله، وبالفعل لاحقه أحد المتعصبين وطعنه بمديته"سكينته".

- حتى المسيح عليه السلام جاءهم بموعظة الحب فأغلقوا أسماعهم دونه وقال لهم المسيح: "إنه بالإيمان وحده لا بالنسب سوف يدخل الإنسان ملكوت السماء"، وكانت موعظته: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، وأحسنوا مبغضكم"!.

فتآمروا عليه ليقتلوه.

- وجاءهم محمد- علية الصلاة والسلام- مؤيداً بروح القدس يدعوهم للمودة والرحمة، فقدموا له كتف الشاة المسمومة.."![1]

"حتى بعض الفنانين اليهود كان لهم موقف من الأحداث الإسرائلية في فلسطين، مثل الفنان أوسكار كوكوشكا الذي رفض الحرب في فلسطين، وانتصر للحق والعدل والقيم.."[2]

*****

---

[1] تم الاستعانة في هذا الجزء بكتاب المفكر والأديب د.مصطفي محمود.. (إسرائيل البداية والنهاية).

2- تم الاستعانة في هذا الجزء بكتاب الفنان الأستاذ عبدالرازق عكاشة.. (ثلاثية الوجع والحب واللون)

عقدت النية تلك المرة أن أحدثها في بعض الأمور الأخرى التي أعددتها جيداً، فبعدما ألقيت عليها قصة مونتفيري، والذي كان سبباً رئيسياً في تملك الأجانب للأراضي الفلسطينية.

أردت أن أحدثها عن "وعد ما لا يملك لمن لا يستحق (وعد بلفور)! وقبله بعض الأمور، لكن على ما بدا لي وقتها أنها لم تكن بحالة مزاجية جيدة، فمذ أتت ولاحظت عليها أن هناك شيء ما يخالجها، لم تكن حزينة بتلك الحالة كما هى الآن سابقاً.

جلست بجانبي ولم تنبس ببنت شفة، فعلمت أن ذلك ليس وقت مناسباً على الإطلاق، فتحدثت مقاطعاً صمتها، ماذا بك يا مايا هل هناك شيء يضايقك.؟

كنت أشعر أنها في أشد أوقات حيرتها على الإطلاق، كما لو كانت تخشى الحديث على غير عادتها.

- شعرت بترددها وهي تقول: لا شيء أنا بخير.

- فأمسكتُ يدها وقبضت عليها قائلاً: كل شيء يمكن أن يكون بخير ما دمنا سويا، فقط أخبريني ما بك ولعلنا نجد حلاً سويا.

كانت تحاول منع الكلمات من الخروج، ولكنها شعرت بأن داخلها بركان وأن لم تخرجه سوف ينفجر، فنظرت إليَّ وانهمرت بالبكاء فجأة وهى ترتمي بين ذراعي للمرة الأولي، وقالت: لقد عزموا أن يزوجونني يا سالم.

- فقلت وقد تسرب الهلع إليَّ: ماذا! يزوجوك بمن، ولماذا الآن؟!

- لا أعرف، أخبرتني أمي أن تلك هي المفاجأة التي كانت تخفيها عني سابقاً، وأنهم قادمون لزيارتنا قريباً وأن عليّ أن أتجهز كعروس تنتظر خاطبها.

فانتقل الصمت منها إليَّ وأصبحتُ مشتتاً، هائماً لا أعلم ماذا أخبرها.

ثم أردفت بلهجة ثائرة: ولكنني رفضت قطعاً، وواجهت أمي بذلك، واخلتقت لها حجة أن ديفد يعقوب ذاك كان صديقي مذ كنا أطفال، وأنني لا أكن له أية مشاعر.

فسكتُ للحظة حينما سمعت الاسم –ديفيد يعقوب–: وتذكرت أني منذ فترة علمت أنه حدثت مشكلة بين راشد والد سارة الذي اختفى وبين ذاك الشاب، وأنها قد تطورت إلى حد أنه نال بعضهم من الآخر.

لم أكن أريد أن أخرج عن موضوعي أنا ومايا، ولكنني سألتها كما لو كنت أسأل في سياق الحوار، هل يسكن ديفيد ذاك قريب من هنا ومن أين تعرفينه؟!

- قالت: إن أباه صديق أبي وكان جارنا قبل أن ننزح لفلسطين، وحاول أبوه أن يسكن معنا في تلك القرية، لكن أحداً لم يرض أن يبيعه بيته فلم يجد بداً من أن يسكن في قرية جوارنا، وظلوا يترددون في زيارتنا في تلك الجلسات التي يعقدها أبي بالمنزل كما أخبرتك سابقاً.

أكملت وهي تجفف دموعها: ماذا سنفعل يا سالم؟

أفاقني سؤالها الذي أخرجني عن حيرتي في ربط الأمور، ورجعت إلى حالنا الذي يرثى له ذاك، وكنت أحدث نفسي أنه ماذا لو علمتِ أن أبي أيضاً والجميع تقريباً يريدونني أن أتزوج ريم، ما هذا الحظ العثر، حينما يأتيني حبي الذي انتظره يأتي بتلك الطريقة!. آآاه.

- كانت تنتظر مني إجابة سحرية تحل ذلك الأمر المعقد، لكنني حاولت التفكير فوجدتني لا أستطيع، فقلت لها: إن حل ذلك الأمر يكمن بك أنت يا مايا!، التّقطت يديها وأمسكت بها، ثم أردفت: كل ما أريده منك فقط هو بعض الوقت وأعدك بأن كل تلك الأمور ستحل!.

- قالت وهي مستسلمة: كيف ذلك يا سالم؟

- فقط ثقي بي يا مايا، هل تثقين بي؟!

- بالطبع ولكن ماذا أفعل مع ديفيد!؟

- لن تكون بينكما أي علاقة، ولكن حاولي ألا تزجي بنفسك في خصام مع أبيك أو أمك فلا نعلم ماذا ستكون ردة فعلهم على ذلك.

- قالت مستسلمة: سأحاول.

- ثم استقمتُ واقفاً وقلت لها: هيا نتمشى قليلاً قبل أن تميل الشمس.

- فردت بخوف: ولكن أخشى أن يرأنا أحد.

- لا تقلقي فلا أحد يتجول في ذلك الوقت.

تأبّطُ ذراعها كعريس يزف لعروسه، وأخذنا نسير مبتعدين قليلاً عن الشجرة، وبالطبع عكس اتجاه بيتها.

وبينما كنا نتسامر ونتخيل كيف سنكون بيتنا، إذ بي رأيت بعيداً إسراء تتجول وحدها بين الحقول!

فتوقف قلبي عن النبض خاصةً حينما قابلت عيني عينها، وبسرعة طلبت من مايا الرحيل وقلت لها سأخبرك لاحقاً ماذا حدث قبل أن تسألني، ولكن عليك الذهاب الآن، فلقد حل خطبٌ عاجل.

فذَهَبتْ في طريقها وهي تجر خلفها حيرتها مما يكون قد حدث، وانطلقتُ نحو إسراء مسرعاً ومحاولاً أن أخفي علامات توتري التي كانت تقفز من وجهي.!

- اقتربتُ منها وقلت لها: ماذا تفعلين هنا يا حبيبتي في ذلك الوقت.

- فردت عليّ وهي تفرك عيناها بيدها وتتساقط منها الدموع: لقد ضاعت قطتي يا عمي وبحثت عنها بكل مكان ولم أجد لها أثرًا، وأخذتني قدمي إلى أطراف القرية هنا عَلِّ أراها بين الحقول والجداول تتجول هنا أو هناك.

فحملتها على كتفي كما تعودت، محاولاً أن أنهي ذلك الموقف بأي طريقة، ومحاولاً ملاعبتها قليلاً، ثم جرت على لساني كلمات ألهمني بها الله حتى تهدأ. لا تقلقي يا حبيبتي سنجدها بالبيت ريثما نصل، وحمدت الله وثلج صدري حينما لم تسألني عن مايا، ولم أكن أدري ألم ترنا جيداً أم أن حزنها على القطة كان أقوى تأثيراً عليها.!

وحينما وطأت قدمي عتبة البيت وأنا أحملها، وجدتها تحاول القفز من على كتفي وتردد: القطة ياعم سالم إنها هناك خلف المزهرية.

ركضت باتجاهها والتقطتها وهي تضمها، وتقول: أين كنت لقد بحثت عنك بكل مكان.

- خرجت أشجان على صوتنا من المطبخ، وهي غاضبة وتقول: أين كنت يا فتاة، فتلعثمت ولم تكن تعلم ماذا ستقول لأن أمها تحذرها دوماً من الذهاب إلى أطراف القرية وحدها حتى لايصيبها مصاب!.

- فتدخلت وأنقذتها من بعض الضربات التي كانت ستتلقاها، وقلت: أتت إسراء المحل لتلعب معي قليلاً، ثم أنهيت العمل وأتيت بها إلى هنا ما المشكلة؟

فعادت أشجان لترتيب المنزل، وهى تشعر بشيء من الخداع في حديثي، ثم ابتسمت إسراء لي وأرسلت لي قبلة وهى تضحك.

- فاقتربت منها هامساً: لقد مرت تلك المرة ولكن عديني ألا تكرريها.

- أعدك يا عم سالم وقبلتني ورحلت تلاعب القطة.

*****

كان اليوم من بدايته جميلًا، ولم أكن على دراية بما كانت تخطط له حور وبحسن نية كنت أظن أنها تفعل ما تفعله فقط للترفية، فهى لا تصنع لي الكعك كل يوم وتداعبني كل يوم، حتى علمت ما كانت تجهز له بالمساء حينما أتت ريم..

- ألقت ريم السلام، وجهزت لها حور بعض الكعك.

- ثم قالت حور: دعوت ريم لتأكل معنا الكعك اليوم، كما أنها تحمل لك بعض الأخبار.

- خير إن شاء الله.

- فردت ريم وهي تلوي شفتيها لا ليس خيراً يا محمود: أنا لا أعرف أأخبرتك حور بذلك أم لا، ولكن إبراهيم قد تقدّم لخطبتي وأرى أن أبي يروق له الأمر تلك المرة أكثر من أي وقت مضى، ويحاول الضغط عليّ وأنا لم أعد أستطيع التحمل، كما أنه لا يمكنني أن أخدع ذلك الشاب وأزف إليه، وقد

زُف قلبي إلى سالم سابقاً يا محمود، وإني يئست منه ولا أعرف إلى متى عليّ الانتظار أكثر من ذلك..

فسَكَتُ للحظة أفكر فيما عليّ قوله، فهما يعلمان تماماً أني أنا الوحيد الذي يعلم سر سالم، وأنا الوحيد الذي يمكنه أن يؤثر عليه.

- ثم فكرت بمبرر مقنع إلى حد ما ورفعت عيني وقلت لها: يا حور أنت لا تفهمين.! إن سالم يخشى من المستقبل خشية الطفل من الظلام، نحن نرى جميعاً ما تمر به فلسطين. ولا أحد يعلم إلى أين سيصل حالنا، إني أتحدث معه كثيراً وهذا ما ألاحظه بكلماته.

- فردت حور بانفعال: وهل هذا يعني أنه لن يتزوج!، هل سنوقف حياتنا على المجهول.! فيجب إذاً أن يوقف الفلاح عمله، ويجلس التاجر بمنزله ولا ينبغي على أحد أن يتعلم.! لا تؤاخذني ولكن ذلك الخوف مبالغ فيه.

كنتُ أعلم أن تلك الكذبة لم تكن مقنعة جداً، على الرغم من أن سالم كان يفكر بها أيضاً، ولكنّي لم أجد بداً عن التمسك بها حتى أخرج من تلك الورطة.

- ثم أكملت حور بذكاء أنثوي ماكر: اسمع يا محمود، إن كان الأمر كما تقول فإن سالم يحتاج إلى دفعة، كانت تتحدث كما لو كانت جنرال ينظم جنودة، ويُعِد لهم خطة ما، إن علينا أن نشعره بأن ريم ستضيع من يده وأن الأمر شارف على الانتهاء.

- فخرجت ريم عن صمتها بدفعة عشق: ماذا تقولين إن ذلك مستحيل!

– أعلم! إنها خطة يا حمقاء، حتى نحركه قليلاً وأنا أيضاً سأحاول مع أشجان لتضغط عليه هي الأخرى.

– ما كان عليّ إلا أن أسلّم لكلامها بكل خنوع ورضوخ حتى يمكنني التملص من ذلك، فأومأت برأسي كما لو كنت موافقاً وقلت: بالفعل، إنها فكرة عبقرية.

– ثم قالت ريم وهي تنهض من مجلسها وتَهُم بالمغادرة: أما عني فأعانني الله على إلحاح أبي، سأحاول أن أرفض بطريقة لا تُغضبه.

ثم قامت حور توصلها للباب، ورجعت تقول لا أعلم ماذا يعجبها في صديقك هذا، من ذلك الأحمق الذي يكون أمامه فتاة مثل ريم تحبه ويتركها.

وبالطبع كان عليّ أن أوافقها بكلامها، حتى لا ندخل في صِدام.

وفي نهاية اليوم، أهدتني ليلة جعلت فراشي دافئا حتى الصباح، كانت خير نهاية ليوم كهذا، كما لو كانت تبرم معي صفقة اتفاقنا على سالم.

*****

خلال تلك الفترة التي اتفقت عليها أنا ومايا وفي خضم كل هذه المشاكل كان أبي يتألم تحت لحافه الأبيض ونحن ملتفون حوله في حزن وحيرة، لم يكن أبي أبداً يحاول أن يظهر لنا أنه مرهق أو متعب، لكن ذلك كان يظهر عليه من غير حديث.

– قال علي في قلق: ماذا دهاك يا أبي.!

- فرد وهو يتجرع الألم ويحاول أن يطمئنا: لا شئ يا علي، فقط بعض الألم المعتاد بالقلب، وبالصباح سأصير بخير لا تقلق يا بني، دعوني أرتاح الآن.

- خرجنا جميعاً في توتر وقلق ولا نعلم ماذا علينا أن نفعل، اقترح علي أن نأخذ أبي ونسافر إلى طبيب يمكنه أن يساعدنا، ثم قال: سننتظر للصباح إذا ظل هكذا فلابد أن نتحرك.

دخل كل منا إلى غرفته يحاول أن يجد للنوم سبيلاً بعد ذلك المصاب والفاجعة، فلم يحدث لأبي ذلك سابقاً، أن يتألم هكذا يعني أنه بمرض شديد، كان يتردد عليه ألم القلب ذاك لكنه كان معتاد عليه ولم يأته بتلك القوة قبل ذلك.

حاولتُ أن أخلد للنوم كمن يصارع الواقع حتى يهرب، وفي النهاية مد لي النوم يد المساعدة ونمت حتى الصباح.

صحوت متأخراً عن الجميع كعادتي، وانطلقت مسرعاً إلى غرفة أبي حتى أطمئن عليه فلم أجده بالداخل، فتعلق بي القلق وناديت على أشجان بصوتٍ حاد.

- فجاءت مسرعة وقالت: ماذا هناك يا سالم، أصبتني بالفزع.!

- أين أبي.؟!

- لا تخف الحاج عبدالقادر بخير ولقد صحى باكراً، وذهب هو وعلي إلى المحل، هيا أعد لك الفطور لتلحق به.

حمدت الله أنه بخير واطمئننت عليه، ثم ذهبت إلى الحمام لأستحم قبل الخروج للعمل.

ولكني فضلت قبل الذهاب للمحل أن أمر على محمود، وأخبره بما قالته لي إسراء بخصوص راشد وعما علمته عن ديفيد، علّنا نستطيع ربط الخيوط، لا أعلم لماذا يساورني الشك أن هناك سراً ما وراء ذلك الموضوع.

مررت عليه بالمنزل ولحسن الحظ لم يكن قد خرج بعد، وانتظرته حتى تجهز وانطلقنا سوياً.

- قلت له: ونحن نسير أتذكر راشد يا محمود.

- فقال وبنبرته حنين للماضي: راشد! مر الكثير من الوقت على آخر مرة رأيته بها، إنه من خيرة شباب القرية ومن المقربين لقلبي فعلاً، ولكن أخبرني ما الذي يذكرك به، إنك لم تكن تجمعك به علاقة قوية حتى تسأل عنه.

- حدث شيئا غريب ذكرني به مرة أخرى. أخبرتني إسراء أن ابنته سارة قالت أنه غائب منذ فترة طويلة ولا يعلمون عنه شيئاً إلى الآن، وتذكرت أيضاً أنك أخبرتني أنه حدث بينه وبين أحد الصهاينة مشكلة ما، على ما أذكر كان اسمه ديفيد يعقوب، وأنا أشعر أن ذلك الشيطان وراء اختفاء راشد.

- ولكنني على ما سمعت أن ديفيد ذاك لا يعيش هنا بالقرية وأن المشكلة التي حدثت بينه وبين راشد لا أحد يعلم سببها، وحتى لو كان هو وراء ذلك الاختفاء فلماذا انتظر كل تلك الفترة!.

- لا أعلم لكنني لست مطمئناً.!

- فقال في هدوء: لنترك الأيام تبين لنا ذلك، المهم كيف يسير العمل وكيف حال العم عبدالقادر، تحدثنا طويلاً حتى أوصلته لعمله ثم انطلقت إلى المحل، واتفقنا أن نتقابل عند مينا لاحقاً.

*****

أقبلت أمي مهللة كما لو كانت تتجاهل ما أخبرتها به سابقاً أو أنها ليست مهتمه، فلازالت تعاملني كطفلة.

-مايا عليك أن تتجهزي فسوف يأتي ديفيد ووالده ليزورونا مساءاً، ولقد أعددت بعض الطعام لنأكل جميعاً على مائدة واحدة، أريدك أن ترتدي فستانك القرمزي فهو يجعلك كأميرة تتماشى بين حاشيتها، وتتعطري بالعطر الذي أهداك إياه خالك من أسبانيا، فعلى ما أذكر أنه قال أن رائحته فائحة وجذابة فدعينا نجربه الليلة.

تحركت نحوي بعض خطوات وقبلتني وهى على نفس الحالة التي تتجاهل فيها مشاعري. قائلةً: ما أسعدني الليلة يا حبيبتي، سأذهب لأتابع العشاء وكل ما أريده منك الليلة أن تهتمي بنفسك وتفرحي قليلاً، ثم خرجت مسرعة إلى المطبخ، ولم تحصل مني على شيء غير ابتسامة كسولة تساعدها على الرحيل أسرع.

لم أكن على دراية بما يتوجب عليّ فعله، وكيف سأتعامل مع ديفيد الليلة، وأتجاهل أنه ما هو إلا شخص عادي لا يمثل لي أي شيء أكثر من كونه عادي.!

قمت أنظر إلى المرآة وأدعو أن تمر تلك الفترة التي وعدني بها سالم على خير، وقررت أن عليّ أن أتعامل طبيعياً كما أخبرني سالم، وأن لا أحاول أن أثير الشكوك حولي، متمنية أن يمتلك ديفيد بعض الشعور الذي من خلاله يعلم أني لست منجذبة نحوه على الإطلاق.

أتى الليل بسرعة خارقة، وقدم ديفيد مرتدياً بذة سوداء تبرز بياض بشرته، وشعر أسود يتماشى مع لون بذته ويتدلى من على جانبي وجهه خصل شعره الملفوفة، فلقد كان ديفيد أصولياً متشدداً مثلما كان أبوه.

ارتديت فستاني الأرجواني، ولم أستعمل زجاجة العطر الأسبانية، فلقد نسيت تعلميات أمي السخيفة.

ثم خرجت من غرفتي وسلمت عليهم في فتور، وذهب أبي والعم يعقوب إلى قاعة الاجتماعات التي يجلسون بها دوماً وبقيت أنا وديفيد وحدنا.

- كيف حالك يا مايا؟ قالها ديفيد بشكلٍ لبق.

- بخير حال يا ديفيد، ماذا عنك مر الكثير من الوقت على آخر لقاء لنا، أعتقد أنه كان منذ بضع سنوات.

- اعتدل بجلسته على الأريكة كما لو كان يتجهز ليلقي خطابا بإنجازاته، وقال: أكملت دراستي بفرنسا وحصلت على بكالريوس في الهندسة الميكانيكية، كما أنني أتممت تعليمي أيضاً على البيانو وأصبحت محترفاً الآن.

أتذكرين! كان يعلمنا العم نوعام عندما كنا أطفال، بالمناسبة هل لا زال ذلك البيانو موجوداً؟.

- نعم، ولكنه مغطى منذ فترة طويلة ولا أحد يستعمله.

- لعلي سأعزف لكم مقطوعة الليلة، أخبريني أنتِ هل لازلت ترسمين.؟

- نعم لا أمتلك شيئاً آخر لأفعله بحياتي.

- فرد وعيناه تلمع مدّعياً العبقرية: كما توقعت تماماً، لذا فأريدك أن تفتحي هديتي وتري ماذا أحضرت لك.!

فتحت الهدية بتململ، وهو يلقي حديثه بطريقة متعجرفة معهودة.

أحضرت لك تلك اللوحات من بعض المعارض التي كانت تقام في باريس، مدينة الجمال والفن كما تعرفين.

أتعلمين طالما تمنيت أن أذهب أنا وزوجتي المستقبلية إلى هناك، فلا يمكنني أن أصف لك مهما تحدثت عن روعة شجر الكستناء الذي يزين جانبي الطريق، وبالطبع برج "إيفل" الذي يأتيه الزوار بالملايين كل عام، دعك من كل ذلك. متحف اللوفر والذي أظن أنه أكثر ما سيعجبك وتحبينه هناك، متحف بهذا الحجم أكاد أجزم بأن عليك أن تزوريه ليس مرة واحدة ولكن الكثير من المرات.!

بعدما انتهي من حديثة الطويل المليء بالعجرفة والغرور، ومحاولاتة اللانهائية ليبين كما هو ناجح ومتفاهم وليس متشدداً كأبيه.

شكرته على تعبه واهتمامه وأبديت إعجاباً يشوبه البرود باللوحات التي أهداني إياها. ولم أنبس بكلمة حتى خرجت أمي تدعونا للعشاء التي جهزته.

ثم خرج أبي والعم يعقوب وهم يتبادلان الضحك على شيء مجهول، ثم قام ديفيد وقال لي: هيا أرني أين يوجد البيانو سأعزف لكم بينما تتناولون عشائكم.

أخذته إلى البيانو وأنا أدعو بكل وجداني وأتمنى أن تنتهي تلك الأوقات الثقيلة، ويذهب هؤلاء في طريقهم.

وجلسنا على المائدة الدائرية يتجاذب أبي والعم يعقوب أطراف الحديث في سعادة عارمة، وهم يتحدثون عن ذكريات مملة لا يكفون عن ذكرها دوماً والضحك عليها بنفس الحماس، وأرى السرور بعين أمي كأنها تقوم بإنجاز ما. ويلعب ديفيد البيانو بمهارة تناسب غروره الجم.

مرت دقائق العشاء والعزف كأنها سنين، وتنفست الصعداء حينما همّوا بالرحيل وأوصلهم أبي للخارج وهو يودعهم بكل سعادة وحب.

تحاشت أمي التحدث إليّ في ذلك اليوم، كأنما كانت تشعر أنني سأخرجها من حالة النشوة التي أمست بها بكلامي وحديثي الذي يضايقها، وبالطبع سندخل بجدال حول الفستان وتلك التراهات الأخرى.

- فتركت مهمة استجوابي لأبي الذي طرق الباب بهدوء ودلف بتؤدة، جذب الكرسي وجلس أمامي قائلاً: تعلمين أنك ابنتي الوحيدة يا مايا وأنني لا أحب أحد قدر ما أحبك، وكل أمنيتي بالحياة أن أراك سعيدة وهانئة.

- بالطبع يا أبي أعلم ذلك.

- فأكمل بصوت خافت: فإني أري يا جميلتي أن ديفيد مناسب لكِ تماما، إنه شاب ذكي، جميل، ويهودي ملتزم. ولقد علمت من أمك أنك لا تشعرين

بالراحة حيال ذلك الأمر فرأيت أن عليّ أن أحدثك، وأعلم ماذا يجول بخاطرك تحديداً.

– سكتُ للحظات مترددة فيما يتوجب عليّ قوله ثم قلت: يا أبي إن كل ما أريده هو الوقت، أريد أن أعلم إن كان ديفيد هو المناسب لي فعلاً أم لا!. بالطبع أنا لا أتجاهل ترشيحك له أنت وأمي، ولكنني أحتاج لبعض الوقت للتفكير، فهل يمكنكما إعطائي ذلك.

– أجابني مستسلماً: كما تريدين يا ابنتي ولكن رجائي أن لا تطيلي بالتفكير، ثم قبّلني وخرج!.

*****

تملّكنا القلق لعدة أيام على أبي، حتى استقرت حالته وشعرنا أنه استعاد عافيته قليلاً بحمد الله.

– وبينما كان علي ينظم ما تبقي في المخزن من بضائع وهدأت حركة البيع قليلاً، بدأ العم عامر بالحديث قائلاً: الحمدلله أن الحاج عبدالقادر بخير يا سالم، لا تعلم يا بني كم كنت قلقاً عليه بعدما علمت بمصابه.

نشأنا أنا وأبوك مع بعضنا وتمتلئ شوارع تلك القرية بذكرياتنا سوياً، أطفال كنا وبعد ذلك شباب تحت سماء فلسطين، كبرنا وترعرعنا مع بعضنا البعض، كان أبوك شاباً يافعاً قوياً مفتول العضلات في شبابه، كان يحب العمل ويجد فيه أكثر من أي شيء آخر.

ودوماً ما كان يقول لي. أتعلم يا عامر حينما أكبر وأمتلك أسرة، أتمنى أن يكون عندي محل كبير أقوم من خلاله بالتجارة والربح، فلا شيء أحب لقلبي من التجارة.

آه يا بني. أتعرف ما هو المحزن من أن تشعر بأنك كهل قد بلغت من العمر منتهاه، أن ترى ذلك في صديقك ورفيق دربك.

– الحمدلله أنه بخير الآن يا عمي عامر، وأن قلبنا ارتاح برؤيته يتحرك ثانيةً.

– تنهد في حرقة: ينتابني شعور أن ذلك الثعبان الذي يدعي نوعام هو من فعل به ذلك.

– ماذا تقصد!

حكى لي أنه قبل أن يتعب أبي بيوم، أتى نوعام إلى هنا وثار أبي لذلك وغضب من حديثه وطرده من أمامه، وأن علي كان على وشك أن يلكمه.

ثم أكمل: الحمد لله أنك ابتعدت عن ابنته تلك،يوم أخبرتك وإلا كانت سحرتك والتفت عليك بطريقة من طرقهم البغيضة حتى توقعك في شباكها، كما حاول أبوها ذلك الثعبان. ولا أستبعد أنها قد تكون جاءت إلى هنا خصيصاً لذلك فقط، حفظنا الله منهم يا بني.

– فقلت له بصوت يعلوه الرضا ويضمر التوتر: حمداً لله أنك أخبرتني يا عم عامر.

دخل علي واجماً، متجهماً وكأنما أصابته داهية.

– ماذا هناك يا علي، سألته متعجبا لحاله.

- جلس على الكرسي وأخرج زفير حزنٍ ثم قال: كنت أخبرتكم أنني عقدت صفقة في إحدى القرى بجوارنا على بعض البضائع، وحينما ذهبت في الموعد المتفق عليه لأتسلم البضائع، أخبروني أنه قد أتى أحد وضاعف السعر وأنهم باعوا له لأنه سلم لهم المبلغ مباشرةً.

- نوعاام مرة أخرى. قالها العم عامر بغضب.

- وماذا سنفعل يا علي، أظن أنه لا يصح أن نخبر أبانا بذلك.

- بل يجب أن يعرف، ولكن لا أعلم كيف نخبره وهو بحالته تلك، أخشى أن تصيبه وعكة صحية مرة أخرى حينما يُصدم بذلك.

- ساد الصمت في المكان ثم قلت له: دعك من ذلك الموضوع الآن ما الذي سنفعله لنوفر البضائع للفترة القادمة، أنت تعلم ماذا يعني أن يخلو محل الحاج عبد القادر من البضائع، إنه أكبر محل للتجارة في السوق، وبتأثرنا بقلة البضائع يتأثر كل الناس تبعاً لنا، ولا نعرف ما الذي خطط له نوعام في تلك الفترة.

- قال العم عامر بعدما فكر قليلاً: لا يوجد غير حل واحد. أن تسافر أنت وعلي إلى كل القرى سواء المجاورة أو البعيدة، حتى تجدوا ما ينقذنا وتأتونا به مباشرةً.

أصابتني صاعقة من ذلك الاقتراح، فمعنى ما يقولة العم عامر أنني سأغيب أنا وعلي لبعض الأيام والذي قد يضيع عليّ لقائي مع مايا.

- بينما رد علي مستبشرا: خير ما قلت يا عم عامر، ولكن أريدك أن تتولى أمر إخبار أبي بما حدث، وتخبره أيضاً بما سنفعله وحاول ألا تجعله يغضب.

- حسنا يا بني لا تقلق من تلك الناحية. رد العم عامر بثقة.

- تحدثت محاولاً أن أأجل ذلك الموضوع قليلاً، وقلت: هل يمكننا أن نتحرك السبت إن شاء الله.

- ولما لا نتحرك باكراً!.

- لا شيء فقط اتفقت مع محمود أن نزور العمة تريز مساء غد الخميس، ولن تفرق كثيراً إذا انتظرنا يومين.

- حسناً اتفقنا، رد علي بغير اقتناع.

لم أجد بداً من أن أبتكر تلك الكذبة، حتى لا يفوتني لقاء الخميس مع مايا، وقد يحالفنا الحظ ونرجع بالبضائع قبل الخميس الذي يليه وبذلك أكون وفقت بين الأمرين.

ساعدت علي لبعض الوقت بالمخزن، وتركت البيع للعم عامر حينما عاد أبي من الخارج، وحتى يختلي معه العم عامر ليحدثه فيما حل بنا وفيما سنفعل.

وبعدما انتهيت أخبرت علي أنني سأسبقه إلى البيت..

وكعادتي بالسير، أتحاشى الأماكن والشوارع المكتظة وأرحل من طريق قلّما يخطوه أحد، قريب من الجداول الزراعية القليلة بالقرية.

وفي خلال سيري لاحظت ذات تلك الكلمات أو الرسومات على الأرض بشكلٍ عشوائي، فركضت نحوها مسرعاً وقلبي بدأ بالخفقان فعلى ما يبدو أنني جننت.

اقتربت منها تلك المرة وحاولت أن أفهم ما كُتب، كانت أوضح من المرة السابقة، ولحسن الحظ جمّعت تلك الحروف المرسومة بشكل عشوائي مع بعضها، حتى كونت لي الكلمة التي قُصد كتابتها. ا.. ب..ت..ع..د.

ابتعد!. من يا تُري يكون كتب ذلك وهل خط تلك الكلمة لي خاصة، أم أنها فقط صدفة.

ثم لاحظت أن أحدا يمشي خلفي كما لو كان يتلصص عليّ، فلما نظرت فجأة وجدته عبدالهادي ومعه عصاته، وبعدما لاحظ أني رأيته استدار وذهب بعيداً.

ثم تذكرت حينما كان يحاول عبدالهادي كتابة شيء بعصاته قبل ذلك حينما رأيته أنا ومحمود، وجزمت أن من فعل ذلك هو عبدالهادي، ولكن لماذا يفعل هذا وماذا يقصد بتلك الكلمة من الأساس.

أكملت سيري بعدما محوتها بقدمي وأزلت أثرها من التراب، وأنا أتمتم يا لك من مجنون أحمق، كما لو كان ينقصني جنونك أنت أيضاً.

*****

وقبل أن تغيب شمس يوم الخميس، ذهبت لأقابل مايا.

وجدتها متشحة بوشاحٍ بنفسجي قاتم، يبرز تقاسيم وجهها الساحرة وبياض بشرتها الناصع.

اتخذت مجلساً بجانبها، وبعد أن أخبرتني كم اشتقات إليّ وبادلتها نفس الكلمات الدافئة. شرعت بالتحدث عن اللقاء الذي دار بينها وبين ديفيد، والبيانو والهدية وتلك التفاهات،،،

– ثم قالت نهايةً: أتمنى أن ننتهي من كل تلك المشاكل التي تحاوطنا يا سالم، لا أعلم ما الذي تخططه بالضبط لكني أتمنى أن ينقذنا مهما كان.

– ستنتهي يا حبيبتي لا تخافي.

والآن لنكمل قصتنا التي بدأناها سلفاً، أخّرت حديثي عن وعد بلفور قليلاً، حتى أوضح لها بعض النقاط التي غفلت عن ذكرها سابقاً.

هل تعلمين يا مايا أن معظم الأراضي الفلسطينية كانت تحت يد عائلات وأُسر كبيرة، فبعدما أنهك الفلاحين من كم القوانين الجائرة التي فرضت عليهم، وشعروا بأنه لم يبقي بيدهم شئ ليفعلوه مع قلة امتلاكهم وافتقارهم للأموال التي فرضت عليهم نظير امتلاكهم الأرض، تحولت معظم الأراضي تدريجياً إلى يد الطبقة الغنية والتي كانت تمتلك الأموال لدفع الضرائب التي فرضتها الدولة.

ولكن ما زاد من سوء ذلك الحال أن هناك الكثير من الأسر العربية الخارجة عن فلسطين من الشام، لبنان، مصر...إلخ تقطن فلسطين. وكانت تلك العائلات من أكبر الأسر في مدنها، كانت معروفة ومشهورة جداً، وكان بجوارهم بعض الفلاحين الذين يحاولون الدفع قدر ما يستطيعون حتى يمكنهم التمسك بأرضهم.

امتلكت تلك العائلات آلاف "الدونامات"[1] من أراضي فلسطين، وتصرفوا بطريقة مختلفة حيال ذلك، فالمعظم مع مرور الوقت باعها وترك فلسطين تماماً.

مثلاً مثل "عائلة سرسق في بيروت[2]، والتي تنتمي إلى طائفة من الروم الأرثوذكس والتي وصفت لكثرة ثروتها باسم (روتشيلد الشرق)، كانت تملك تلك العائلة الكثير من الأراضي الفلسطينية في عهد الدولة العثمانية، والتي وصلت إلى 400 ألف هكتار من الأراضي الخصبة، كانت تمثل حوالي 3 بالمائة من مساحة فلسطين، وقد بيعت تلك الأراضي لليهود في فترة الإنتداب البريطانية".

– قالت: إذاً فليس كما يقال، أن تلك الأراضي التي نستوطنها من باعها هم الفلسطنين ذاتهم.!

– فرددت موافقاً لها بالضبط.

ثم أردفت حديثي. وحتى من كان يمتلك بعض الأراضي القليلة، حينما تتراكم عليه الضرائب كان يقوم برهن أرضه للأسر الغنية، وبالطبع تنتقل الأرض لتلك الأسر حينما يعجزون عن السداد.

---

[1] –الدونم: وحدة قياس لمساحة الارض، استعملت في الدولة العثمانية لأول، وكانت تعادل في بلاد الشام ومنها فلسطين بالطبع: 919.3 متر مربع قبل انهيار الدولة العثمانية.

[2]) تمت الاستعانة بكل من ويكبيديا و بي بي سي.

وحتى أرض المشاع التي كانت تساعد الفلاحين حينما تضيق بهم الدنيا، أسندتها الدولة للأسر الغنية.

فكما ترين لن يجد اليهود فرصة أسهل من تلك لسرقة الأراضي، مع كم تلك التسهيلات التي أعطتها لهم الدولة كما حكيت لك سابقاً، وبالطبع الانتداب البريطاني حينما أتى سهّل عليهم كثيراً.

فماذا سيتمني اليهود من تأييد بعد " وعد بلفور" البريطاني. فلقد كانت تلك الرسالة تعبر عن تعاطف بريطانيا مع مساعي الحركة الصهونية لإقامة وطن لليهود في فلسطين، حيث طلب فيها بلفور من روتشيلد إبلاغ زعماء الحركة الصهونية في المملكة المتحدة وأيرلندا بموقف الحكومة البريطانية في مساعي الحركة.

كما ساهمت تلك الرسالة في التشجيع لنزوح الكثير من يهود القارة الأوروبية على الهجرة إلى فلسطين، خلال فترة ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية.

– قاطعتني مايا قائلة: قرأت كثيراً عن وعد بلفور، وساورتني الكثير من التساؤلات حوله، لماذا تفعل بريطانيا ذلك من الأساس ما العائد والفائدة من هذا؟!

– فجاوبتها متذكراً أني سألت ذات السؤال لمحمود حينما كنا نتناقش في ذلك: أظن أن بريطانيا أرادت الحصول على دعم الجالية اليهودية في الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى!.

– فقالت مسرعة: وأعتقد أيضاً لأن العهد القديم يضمن حق اليهود في فلسطين.!

– فرددت: لا أساس لذلك من الصحة، وإلا لماذا كان يعارض الكثير من مثقفي وعلماء اليهود أن يمتلك اليهود كياناً على أرض فلسطين، والذين كانوا يهاجمو ويحاربون على نطاق واسع، كما أن نص رسالة وعد بلفور لم يرد به كلمة دولة، فكانت كلمة وطن هي المستعملة وأنت بالطبع تعرفين الفرق.

– صمتت قليلاً ثم قالت: وما المشكلة في أن يمتلك اليهود دولة يا سالم؟

– فقلت ثائراً: بالطبع مشكلة، إن تلك الأرض التي يحتالون عليها هى أرضنا، ولن نسمح بأن يحدث ذلك الدنس مهما كلفنا الأمر.

كانت تلك هي المرة الأولي التي أغضب فيها وأثور أمام مايا، كما أنها أيضاً واحدة منهم مهما كان وحتى لو كانت معادية لأفكارهم الدموية كما أخبرتني، فلا زالت واحدة منهم.

فرأيت أن من الصواب أن نغير سياق الحديث الآن، لعلي لا أرها الأسبوع المقبل إذا لم أوفق أنا وعلي، ولن أخبرها ذلك بالطبع حتى لا تغضب.

– قلت لها: دعينا نغير ذلك الموضوع الآن وأعدك بأنك سترين الحقيقة يوم ما وستفهمين ما أقوله قريباً، ثم أردت أن أجذب انتبهاها بعدما شعرت أنها ملّت.

لم تسأليني ما الذي جعلني أذهب مسرعاً في المرة السابقة؟

– فقالت وهي تحاول أن تبدو غاضبة لثورتي عليها: وماذا قد حدث.

حكيت لها عن إسراء وعرفتها من هي لأني لم أسبق وحكيت لها تفاصيل عن أهلي، وأخبرتها أنها رأتني وكانت تبحث عن القطة، ثم أضفتُ بعض الحماقات والتراهات التي جعلتها تضحك حتى دمعت عيناها وجعلتنا نتناسا ما كنا نتحدث عنه.

- وقبل أن تذهب قالت لي: رسمت صورة جديدة من أجلك.

- أرسمتيني مجدداً!؟، ألا يوجد شيء آخر تفعلينه!.

- فضحكت بصوت عالٍ وقالت: لا ليس أنت وإنما رسمت منزلنا كما تمنيته وتخيلته، وأخرجتْ لوحة لمنزل به شرفتين وحديقة صغيرة وأطفال يلعبون قبل الغروب، وزوجين يمسكان أيدي بعضهما وبينهما قرص الشمس الأحمر.

كانت رائعة فعلاً:

- ثم قبلتها على وجنتها لأول مرة فاحمرت خجلاً، ولامست يدها الناعمة وقلت: ثقي بي وصديقيني يا مايا وارتسم المشهد الذي رسمته بلوحتها، حيث كان يمسك أحدنا بيد الآخر ويتوسطنا قرص الشمس الأحمر.

أخرجت من الصندوق لوحة كانت قد شغلت حيزاً كبيراً منه.

- انظر يا عمر.

- فقال في ذهول: كانت فنانة يا جدي.

- بالفعل كانت كذلك بكل شيء تقريباً.

*****

تكررت ذات الكلمة متناثرة الحروف على الأرض على مدار يومي الخميس والجمعة، كما تكرر نفس الحلم الذي يصفعني فيه عبد الهادي تقريباً في كل مرة أنام بها.

وحقيقة بدأ الأمر يشغلني إلى حد ما بعدما كنت غير مهتم بتلك التخاريف، ولكنه ليس وقتاً مناسباً للتحدث عن تلك التفاهات إطلاقاً.

بشروق شمس يوم السبت انطلقت أنا وعلي وأعددنا عدة السفر، مجهزين الأموال اللازمة لمقايضة البضائع حتى يمكنها أن تنهي تلك المحنة.

ودع علي زوجته وإسراء وقبّلنا يد الحاج عبدالقادر، وطلبنا منه أن يساعدنا بدعواته الطيبة.

كنت في تلك الرحلة كالمرافق لعلي، فأنا لا أجيد التعامل مع التجار والفلاحين والمماطلة بالأسعار، أما علي فكان رجل سوق كما تعني الكلمة.

دوماً ما كان أبي يقول عن علي أنه مثله يحب العمل والتجارة، أما عني فكان يشبّهني بأمي أكثر التي كانت تبتعد عن الحياة المادية وتميل للهدوء.

كانت قريتنا تقع على حدود القدس، ولما كانت القدس هى عاصمة فلسطين السياسية والثقافية والاقتصادية، وقبلة أنظار العالم بمقدّساتها الإسلامية والمسيحية، (وستظل هكذا للأبد)!.

كما تربط بحكم موقعها بين كل المدن كالناصرة، حيفا، نابلس، يافا، الرملة، الخليل، بئرالسبع، غزة، أريحا، وبيسان، كانت هي قبلتنا للتوجه إليها للحصول على مبتغانا من الحبوب اللازمة التي نخزنها خلال السنة ونبيع منها.

ولكنني اقترحت على علي أن نجعلها آخر وجهة نتوجه إليها، وأن ننطلق قبل ذلك إلى مدينة "صفد"[1] فنحن بحاجة إلى بعض من محصول الزيتون ويمكننا أن نحصل عليه بسعر أقل من تلك البلدة التي اشتهرت بزراعته.

فأبدى علي موافقته على ذلك، حقيقة كنت أريد أن أطيل في تلك الرحلة فلم يكن الغرض عندي هو زيادة الربح في التجارة، بقدر ما كنت أتمنى أن أجوب فلسطين وأتمشى بين طرقاتها حتى وان كنت أخشى أن أفوت موعد مايا.

كانت المسافة بين القدس وصفد شاسعة، فكلفنا ذلك يومين حتى ننهي عملنا هناك، وبالرغم من طول الطريق وإرهاق السفر الذي اعتلانا، إلا أنني شعرت أن عليّا كان يستمتع هو الآخر بتلك الرحلة مثلي تماماً، وفي بعض الأحيان كنت أشعر أنه يعرف أن حديثي غير مقنع حيال الزيتون، ولكنه أراد أن نمضي بعض الوقت سوياً.

بطريق عودتنا إلى القدس كان بالي مشغولاً بعبدالهادي، على الرغم من كثرة الأمور التي تجول بخاطري إلا أنني كنت أريد أن أعرف سر ذلك الرجل أو أعرف قصته، فإنني لم أولد وأجد عبد الهادي بالقرية بل حل علينا من قرية أخرى على ما أسمع.

---

[1] – صفد: مدينة جبلية تقع شرق جبال الجليل، وتمتاز بجودة مناخها وتحيط بها أشجار الزيتون وكروم العنب. كما ينتشر في الجبال والمناطق المحيطة بها غابات البلوط والسنديان الطبيعية وخاصة غابات جبل الجرمق وسعسع. وكانت صفد طوال تاريخها مدينة مزدهرة ومركزاً إدارياً هاماً في شمال فلسطين.

وكنت بذلك الوقت طفلاً لا أتذكر تفصيلاً كلامهم عنه، كما أن الحديث عنه كان غير مهم للجميع حتى أولئك الذين يتحدثون عنه، فمن ذا الذي سيهتم بمجذوب.

ولكن ما أعرفه أنه وجد راحةً وهناءً في قريتنا، فمعظم أهلها يعطفون عليه ويقيم عادة بغرفة خارج المسجد أعدها له أهل الخير.

ولكن ما الذي يجعله مهتماً بي، ما علاقتي بذلك الرجل من الأساس حتى يزورني في أحلامي ويكتب لي على الأرض بعصاه.

- كانت الشمس تعلو الرؤوس والجو يميل إلى حرارة حارقة، حينما لاحظ علي انشغال بالي، مما دعاه للخروج عن صمته قائلاً: أأنت بخير يا سالم.!؟

- ترددت قليلاً قبل أن أخبرة بما أفكر به، فأنا وعلي لم نكن نتحدث عما نفكر به سوياً، ولكنني لم أجد أحداً غيره، فأخبرته عن حلمي الغريب وعن الكلمة التي أراها دوماً بطريقي.

- فانفجر ضاحكاً: لا تخف يا أخي أنت فقط بالك مشغول به فلذلك يزورك بأحلامك، أما عن الكلمة فلعله لم يكن يقصد. لعله كان فقط يكتب أية حروف وحتى لو كان يقصدها فما أدراك أنه يقصدك أنت تحديداً.

- عاصرت أنت مجيء عبدالهادي القرية ياعلي، فأنت تكبرني سناً، أريدك أن تخبرني عنه أكثر من أين أتى ما الذي حوّله إلى حالته تلك، كل ما تعرفه عنه تقريباً.؟

– قال والعرق يتصبب من رأسه بفعل الحرارة: كل ما نعرفه عنه هو أقاويل، قالها بعض من يسافر ويتجول بين القرى.

على ما أذكر أنه نزح إلى قريتنا وكنت بالخامسة عشر من عمري وحينها تعجب أهل القرية من مجيئه، ولكنهم على الرغم من ذلك عطفوا عليه ووفروا له المأوى والطعام، حتى أصبح مع مرور الوقت جزء من القرية وأهلها.

ولكن قال البعض أنه قد أتى من "يافا"[1]. بعدما تعرض لانتكاسة مادية أودت بعقله، كما يقولون أنه كان فلاحاً من صغار الملاك يمتلك قطعة أرض صغيرة تعوله ويتزود منها وبعدما عجز عن دفع ضرائبها ومستحقاتها، آلت نهايةً إلى أحد الصهاينة، الذين كانوا يحاولون إغراءه بالمال سابقاً ولكنه رفض.

وكما سمعت أيضاً أنه كان من أنقياء القلوب أتباع المذهب الصوفي، وكان من محبي وعشاق جلال الدين الرومي الذي تتلمذ على يد "شمس التبريزي" روح المذهب الصوفي وعمود من أعمدته.

وقالوا أيضاً أنه كان قانعاً عن الحياة زاهدًا فيها يسعى للبحث عن الله في كل ما حوله وينشر الحب بكل مكان، ولكنه بعد تلك المصيبة التي حلت به ضاقت عليه الدنيا بما رحبت وفقد عقله، ولا أعرف شيئاً عن عائلته أو أهله.

---

1 – يافا: مدينة فلسطينية تشرف على البحر الأبيض المتوسط، وتبعد عن نهر العوجا سبعة كيلومتر في اتجاه الجنوب، كما تبعد عن مدينة القدس ستين كيلو متراً في الاتجاه الشمالي الغربي، وطالما اعتبرت يافا باباً لمدينة القدس فكانت محط أنظار قوى عديدة للاحتلال نظراً لموقعها الاستراتيجي، ومميزاتها المعدودة.

بعدما سمعت قصته من علي، أشفقت عليه أكثر مما كنت، وزاد حنقي على أفعال الصهاينة بأهل فلسطين.

ولكن ما جذب تفكيري تلك الجزئية التي تحدث بها علي عن الصوفية، فلقد كنت قد قرأت كتابا قديماً لا أذكر اسمه كان يتحدث عن حياة "شمس التبريزي"، وعن أنه كان يرى رؤى ويفسر أحلاماً وأخذ يجول الأرض باحثاً عن الله في كل مكان.

حتى إنه قد هجر بيت أبيه حينما اتهمه أن ما يراه أحلاماً لا معني لها، فهل يرى عبدالهادي رؤى هو الآخر أم ماذا!، ولو كان كذلك فكيف سأفهم ما يقوله أو ما يريده مني.؟

- نظرت لعلي بعدما أنهى حديثه وقلت له بشفقة: مسكين دارت عليه الحياة بنوائبها، لعلي أراه بأحلامي فقط لأني كنت أفكر في حاله.

- فرد علي بثقة. بالضبط..

*****

- مرت ثلاثة أيام على رحيل علي وسالم وأمسيتُ قلقاً عليهم يا بنيتي. قال الحاج عبد القادر وهو جالس بالشرفة، يشرب قهوته تحت ضوء القمر، ويده تهتز من التوتر.

- رددت عليه مطمئنة إياه: لا تخشى عليهم يا أبي سيأتون عاجلاً أم آجلاً، فكما تعلم الطريق طويل ولا نعرف ما يفعلون، لعلهم يجوبون الأرض بحثاً عن سعر أقل أو جودة أفضل وذلك الأمر يحتاج لوقت كما تعلم.

- رد بصوت هادئ رخيم: لقد كبرت يا أشجان، وأرى أن موعدي اقترب.

- قاطعته وربّتُ على كتفه: لا تقل ذلك يا حاج عبدالقادر، بارك الله بعمرك حتى ترى أولاد سالم وسالم الصغير أيضاً إن شاء الله.

- هذا ما يقلقني يا أشجان.. سالم.

تنهد ثم أردف، لا أستطيع أن أفهم كيف يفكر وماذا يريد ذلك الشاب العنيد الذي يذكرني بأمه التي لن تحمل الأرض مثلها، كانت تحمل قلباً من ياقوت، كالأطفال تحزن لأشياء تافهة وتصالحها بسهولة، توقف لحظة بعدما همهم مترحماً عليها.!

ثم ابتسم كما لو كان يراها أمامه وقال: أتذكر موقفاً لها حينما كنا في فترة الخطوبة ولم نتزوج بعد، فكرتُ أن أحضر لها هدية وأنا بطريقي لزيارتها في يوم جمعة، فذهبت للسوق وأحضرت بعض الكيلوهات من الفراولة ثم ذهبت إليها، استقبلني كل من في البيت بسلامٍ حار.

وبعدما أنهيت زيارتي لها قلت لها لم أعرف ماذا يمكنني أن آتيك به كهدية فلم أكن يوماً رجلاً شاعرياً، ولكنني ابتعت لك بعض الفراولة التي انتقيتها بنفسي أرجو أن تعجبك. إلى اللقاء.

ثم بعد فترة من زواجنا بأول عام أعتقد، كنت جالساً معها في إحدي الليالي ثم قالت لي: أنها غاضبة علي.

- فتفاجأت من ذلك وسألتها: لماذا، هل فعلت شيئاً يضايقك!.

- قالت: أتتذكر حينما كنا في فترة الخطوبة وأتيت لي بهدية فراولة تقريباً.

- نعم.

- فردت: كانت الفراولة هي الفاكهة الوحيدة التي لا أكلها، وكنت إذا أحببت أن آكل ولو واحدة تصيبني حمّى.

وبعدما أنهى حكايته أصابتنا نوبة ضحك، كادت أن تنقطع لها أنفاسي.

- ثم قلت له: وكيف صالحتها إذاً يا أبي.

- بالطبع.. جئتها ببرتقال في اليوم التالي، فضحكنا ثانيةً.

كان الحاج عبدالقادر، رجل ذو هيبة أبيض البشرة المترهلة عريض المنكبين يمتلك شارب أسود وانف مفترش وعينين لوزيتين، لا تفارق العصا يداه ولا يتحدث كثيراً.

كان من أحب الرجال لقريته، فكان مساعداً ومتصدقاً بيدٍ سخية لا يبخل ولا يرد أحداً أبداً.

- قاطعت إسراء ضحكنا وهي تقترب مني وتقول بصوت خافت: أريد أن أنام يا أمي وأريدك أن تخبريني بقصة قبل أن أنام.

- فرد الحاج عبد القادر: وأنا أيضاً أريد أن أرتاح، سأجلس قليلاً وحدي بالشرفة ثم ألحقكم. ادخلوا أنتم.

– دلفت الغرفة أنا وإسراء، واستلقيت جاذبة طرف البطانية عليها، وقبل أن أبدأ وأحكي لها لتنام، قالت لي: يا أمي أريد أن أخبرك شيئاً..

– قولي يا حبيبتي ما هو ذاك.

– فقالت وهي تتردد: لقد كذبت عليك أنا والعم سالم. أنا لم أذهب للسوق، بل كنت عند أطراف القرية أبحث عن القطة، وأردت أن أخبرك حتى لا أكون كذبت عليك، لأني وعدتك سابقاً بألا أفعل.

– فكبحت جماح غضبي حتى لا تفقد ثقتها بي، وقلت لها: حسناً يا إسراء، ولكنك لن تفعلي ذلك مرة أخرى صحيح؟!

– بالطبع يا أمي لن أفعل ذلك ثانيةً.

– ثم فكرت للحظة وقلت لها: ولكن أين رأيت عمك سالم إن لم تكوني قد ذهبتي للسوق، فلقد أتيتم سوياً علي ما أذكر.

– رأيته عند الشجرة العجوز يسير مع امرأة ما، ونسيت أن أسأله عنها في ذلك اليوم لأني كنت أفكر فيما ستفعلينه معي.

– فقلت بتعجب: امرأة! ألم تعرفيها يا إسراء؟

– لا يا أمي إنها المرة الأولى التي أراها بها.

– فغيرت الحديث عن تلك الفتاة، حتى لا تشعر بأن هناك شيئاً خطأ وقلت لها: علّها إحدى أقاربنا ولكنك لم تلحظيها، والآن هيا لتنامي فسأحكي لك قصة جميلة سوف تحبينها.

– ردت وهي تجهز نفسها للنوم: حسناً يا أمي..

كنت أحكي لها القصة، واسأل نفسي من ياترى تلك الفتاة يا سالم، هل تكون هى التي حدثني عنها سابقاً.

ولكنه قد أخبرني أنه لم يعرف عنها شيئاً، فلو كانت هي بالفعل فلماذا أخفى عني أنه يقابلها.!

يبدو أن ذلك هو ما يبعدك عن التفكير في ريم ولكن لابد أن أعرف من هي تلك الفتاة وما قصتها، عندما تأتي حتماً سأعرف.

*****

بعدما عدت من العمل في الحقل، جلست أتناول غدائي مع حور، ثم أخبرتها أن تحضر هدية نأخذها معنا إلى الخالة تريز فلم تكن حور زارتها إلى الآن، ولعل زيارتنا تلك تدخل بعض الأنس والبهجة على قلبها المفطور على أختها التي تُوفيت.

فرحت حور بذلك وقالت: صدقت يا محمود، ثم قامت وجمعت الأطباق وساعدتها بذلك وتجهزنا للرحيل وانطلقنا بعد صلاة المغرب.

طرقنا بهدوء الباب ففتح لنا مينا فسلمت عليه وقلت: كيف حالك يا مينا! ودخلت حور للخالة تريز، جثت على ركبتيها واحتضنتها وقبّلتها على رأسها، وهي تقول اشتقت إليك يا خالة كيف حالك؟ حدثيني عن تلك الغيبة الطويلة.

- بخير حال يا حبيبتي كيف حالك أنت.؟

سلّمتُ على الخالة تريز أيضاً، وخرجنا نسير أنا ومينا.

- قالت حور للخالة تريز: هيا أخبريني كيف كان حالكم بسوريا.

– سأفعل، ولكن قبل ذلك أريد أن أطمئن عليك يا ابنتي، ألا يوجد أي علامات للحمل أو أي ما يدل على ذلك.!

– قالت لها بحسرة: لا والله يا خالة، لقد فقدنا الأمل تقريباً في ذلك الأمر، ورضينا بقضاء الله وقسمته، حتى أنني حدثت محمود بأن يتزوج بأخرى.

– نظرت لها الخالة تريز وفي عينها غضب وقالت: ماذا فعلتي يا حمقاء!. لا تحدثيه في ذلك الأمر مجدداً.

إن الزواج يا ابنتي هو عهد بين اثنين على البقاء سوياً حتى الموت، وإن ذلك العهد أكبر من أي اعتبارات أخرى حتى ولو كانت أطفال، فنحن لا نتزوج لننجب فقط، بل نتزوج ليأنس كل منا بالآخر.

كانت الخالة تريز كأم بالنسبة لحور، وكانت حور تحبها وتحترمها كما لو كانت كذلك فعلاً.

كانت سيدة من ذلك النوع الذي تأنس بجوارها ولا تمل مجالستها مهما أطلت، امرأة كهلة جاوزت السبعين، وتقاسيم وجهها محفورة كأثر قديم والحكمة تتناثر من فمها بكل كلامها، أما ابتسامتها البشوشة التي تُرسم على وجهها السمين فلم تكن تفارقها أبداً، كما أنها كانت تؤمن بالوصفات الأعشابية وتلك الأمور التي تشعرك بأنها طبيبة أيضاً.

طلبت الخالة تريز من حور أن تذهب إلى سريرها تحديداً تحت الوسادة وتأتيها بلفة القماش التي كانت تحتفظ بها، فلم تكن تستطيع الحركة كثيراً لكثرة الدوالي بقدمها.

جاءتها حور باللفة التي طلبتها، فأعطتها إياها.

- قالت الخالة تريز: أنصتي إليّ يا ابنتي جيداً، إن تلك الوصفة من الأعشاب الطبيعية أتيت به من سوريا معي لأجلك، سمعت من بعض النسوة هناك أنها تأتي بمفعول سريع.

- فردت حور: يارب يا خالة.

- ثم أخبرتها على طريقة استعمالها، وقالت لها: هيا أخبريني عن أحوال القرية طوال فترة غيابي، وكيف حال ريم وأشجان لم أرهما مذ أتيت.

- فقالت لها حور: سأحكي لك، ولكن ستحكين لي أنت الأخرى عن رحلتك بسوريا، فابتسمت وقالت: اتفقنا..

*****

تحت سماء مظلمة ونور خافت من القمر سرنا أنا ومينا.

- قلت له وهو يدخن غاليونه: أراك هنا منذ فترة طويلة يا مينا ولم تعمل إلى الآن، أخشى أن تنفذ الأموال التي عدتم بها من سوريا ويضيق بك الحال يا صاحبي.

- وماذا سأعمل هنا يا محمود، كنت قد أسست لحياتي بسوريا، فبمساعدة زوج خالتي عملت كمحاسب بإحدى الشركات بدمشق، كما أنني أحببت فتاةً هناك وكنت على وشك أن أتزوجها..

لم أكن أريد المجئ الآن، ولكن بعدما توفيت خالتي وعزمت أمي على الرجوع، وفقدت وظيفتي هناك، لم أستطع ترك أمي وحدها، فلا زالت تقول

أنها تريد أن تموت وتدفن على أرض فلسطين وأن تزفر آخر أنفاسها على سريرها.

ودوماً ما كانت تقول لي يا بني إن فلسطين بحاجة لنا، فلو كنت ستتزوج وتنجب أطفال فلتفعل ذلك على أرض فلسطين فإنها بحاجة إلى شباب يدافعون عنها، ويكشفون عن وجهها المشرق برقع الظلام الذي طال بقائه، والذي لا نعلم لمتى سيستمر، وإلى أين ستصل شدة عتمته.

ثم نفث بعض الدخان من فيه وقال: إنني أفكر دوماً بالعمل ولكن أين سأجد تلك الوظيفة التي أفهم بها وأعمل كمحاسب؟!، فكما تعلم أن معظم الأراضي والمحاصيل قد ذهبت للصهاينة وبالطبع لن أساعدهم بأي شيء ولن أكون سبب في زيادة رقعتهم على أرضنا، ولا يوجد سبيل بالطبع للعمل بنفس تلك الوظيفة مع مُلّاك عرب فلا يوجد عربي الآن يملك التجارة التي تحتاج لمحاسب لإدارتها.

- سكتُ هنيهة ثم قلت له ناصحاً: أفهم ما تقوله تماماً، وأعرف كيف كانت حياتك بسوريا ولكننا الآن لسنا بسوريا، وما حدث قد حدث، فيجب عليك العمل ليس بشرط أن تعمل بنفس الوظيفة، ولكن يمكنك العمل معي بحقل أحد العائلات العربية ونتقاضي الأجر اليومي حيال ذلك وتسير الحياة.

- نظر إليّ نظرة عدم رضا، ثم قال: سأفكر يا صاحبي، سأفكر..

وضع الغليون بجيبة وأردف: بالمناسبة سمعتُ أن راشد مختفي منذ فترة ولا أحد يعرف عنه أية أخبار!

– فقلت له: إذاً فما قاله لي سالم صحيح، ولكنه يقول لي أنه يشك أن للأمر علاقة بديفيد يعقوب.

– فرد عليّ متعجباً: من هو ديفيد ذلك.

فحكيت له تفاصيل ما حدث بينهما.

– فقال: أظن أن الأمر مختلف، سمعت سابقاً أن راشد ينضم لمجموعة من الشباب لمقاومة اليهود والرد على أفعالهم الخبيثة، وكان يتردد على القدس كثيراً لأن مقرهم هناك كما علمت، فمن الممكن أن يكون هناك يُعدّون لشيء ما!

– تفاجأت بحديث مينا ذلك ولكنني قلت: وهل سيترك أهله على تلك الحالة يا مينا، من غير أن يبلغهم حتى بمكانه؟!.

على ما أعرف يا محمود أن تلك الأمور سرية للغاية، فهم يخشون أن يعرف الصهاينة بهم، فيجورون عليهم أو يدبروا لهم مكيدة من مكائدهم.

– فقلت له بقلة حيلة: اللهم رده سالماً، أما نحن فيجب علينا أن نزور أهله ونعينهم بضائقتهم تلك.

– أين سالم بالمناسبة؟

– ذهب هو وعلي في رحلة للحصول على بعض البضائع، فقد ضّيق عليهم ذلك اللعين الذي يدعي نوعام الحال هنا، فكان عليهم أن يرحلوا.

قلت وأنا أفكر بحال سالم الذي لا يرضي أحد: اللهم أخرجه من تلك الوعكة ذلك العنيد، سيء التفكير، هيا بنا نرجع تأخر الوقت، فعلي أن أنام لأجل العمل باكراً.

دخلنا وألقينا السلام على الخالة تريز وحور، اللاتي كانتا تضحكان بصوتٍ مرتفع يخترق حوائط البيت.

- فقلت مداعباً حور: خيراً إن شاء الله يا خالة، أظن أنك تذوقتي حلويات حور، فرمقتني حور بنظرها بين ضحكات مينا والخالة تريز وقالت: وماذا بها يا محمود.!

- فقلت مبتسماً: فقط تدخل السرور على قلب من يأكلها.

- عقدت ذراعيها على صدرها وقالت: حسبت شيئاً أخر.

- لا أستطيع بالطبع أن أقول أي شيء..

ثم ضحكنا جميعا، وودعنا الخالة تريز ومينا بقلب محب وقبل أن نرحل أقسمت علينا الخالة تريز أن نعاود زيارتها.

فقلت لها وأنا أرحل: لا تقلقي يا خالة سنأتيك دوماً إن شاء الله..

تصبحون على خير.

*****

- ريم.. نادى أبي وأنا أجهز الغداء.

- نعم يا أبي آتية.

- طلب مني أن أجلس ثم قال: ما قرارك يا حبيبتي.

- قراري في ماذا يا أبي؟.

- فأجاب: في إبراهيم، حدثني مرة أخرى وأخبرته أنني أنتظرك تفكرين، وغدوت محرجاً يا ريم، إنه شاب محترم ولا أريده أن ينتظر هكذا بدون رد.

- أطرقت أفكر قليلاً ثم قلت له: إذاً فأنت تريد ردي الأخير..

أنا لا أفكر بالزواج الآن يا أبي ولا أريد أن أتحدث عن تلك الأمور في هذه الفترة.

أما عن إبراهيم فكما قلت إنه شاب جميل، محترم، ومثقف وسيجد فتاة تستحقه بالطبع، كنت أخبره ذلك وأنا أفكر في سالم وفي الوعد الذي قطعته على نفسي، أن لا أُسلّم قلبي لأحد غيره مهما ضُغط عليّ وكلّفني الأمر ما كلّفني.

- زم أبي شفتيه بإحباط ثم قال: حسناً يا ابنتي، لن أضغط عليك فتلك حياتك، وأدعو الله أن تكوني على علم بما تفعلينه حيالها، وأياً يكن ما ستقررينه بها فهو عائد إليك، ويجب عليَّ إخبارك بنصيحة يا حبيبتي: "إن الحياة أقصر من أن ننتظر والعمر يمر سريعاً حتى أننا لا نكاد نلمحه".

كنت أسمع كلام أبي، وبداخلي كم من الإيمان والعزيمة لم أعهدهم سابقاً بأنني أسير على الطريق الصائب، وأن حياتي وإن مرت كما يقول أبي فلن تمر هباءً. أثق بما أفعله تمام الثقة.

- سكتَ للحظة، ثم قال: أرجو أن تكوني فهمت ما أقوله.

فأومأت برأسي، مع ابتسامة بها مسحة من الاقتناع الزائف.

ثم أردف: والآن جهزي لنا طاولة الطعام ثم تجهزي، لأننا سنذهب لنزور عمك الحاج عبدالقادر اليوم.

- خيراً يا أبي، هل أصابه مكروه.

- فرد بحزن: قال لي عامر مساء الاثنين المنصرم أنه كان مريضاً بأزمة صدرية، كما أنه مرت فترة كبيرة لم نزرهم بها.

- حسناً يا أبي، أعددت الغداء وتناولناه وذهبنا إلى عمي عبد القادر.

وفي الطريق للبيت طلبت من أبي أن أمُر لأسلم على الخالة تريز، فهى هنا منذ فترة طويلة ولم أذهب لها ولا مرة، وطلبت منه أن ينتظرني بالخارج حتى أعود سريعاً. فأوصاني بأن أوصل سلامه لها، فأومأت برأسي وذهبت.

فتح لي الباب مينا فألقيت عليه السلام ثم خرج وسلم على أبي، ودخلت إلى الخالة تريز وسلمت عليها وأبلغتها سلام أبي.

واعتذرت منها أني لن أجلس معها طويلاً، لأن أبي ينتظرني بالخارج ووعدتها بأن آتي إليها مرة أخرى أنا وأشجان وحور.

- فقالت: سأنتظرك فهناك الكثير لنتحدث عنه.

- فابتسمت وقلت لها: أكيد يا خالة ثم ودعتها وخرجت وأكملنا طريقنا أنا وأبي.

*****

صباح يوم الأربعاء، كنا قد وصلنا أنا وعلي القرية مُحمّلين بالبضائع وببعض الهدايا التي حملناها للأهل والأصحاب.

كنا سعداء لأننا حصلنا على ما حصلنا عليه بسعر أرخص مما اعتدنا، بالرغم من أن تكلفة وصوله والمشقة كانت عالية.

وحينما خطت قدمي مدخل القرية، شعرت براحة لم أعهدها سابقا تتخلل جميع أوصالي، فما أجمل العودة للمنشأ.

كانت رحلة طويلة ذهبنا بها أنا وعلي. لم نترك القرية كل تلك الفترة سابقاً، فشعرنا بأننا اشتقنا لها جداً حينما كنا مبتعدين، حتى ولو كنا على أرض فلسطين ولم نخرج منها إلى بلدٍ آخر.

أتساءل ما هو حال من ترك فلسطين كلها إثر احتلال أو فقر أو أي سبب كان، إذ كان حالنا نحن هكذا ونحن لازلنا تحت سمائها، فما حال من خرج منها إلى الأبد!.

لم نذهب مباشرةً للبيت وإنما انطلقنا للمحل والمخزن، نلقي السلام على أبي والعم عامر ونطمئنهم بحضورنا وأن الله وفقنا في سفرنا هذا، وجهزنا البضائع بالمحل وأخذ كل شيء مكانه.

ثم رجعنا للبيت بعدما انتهينا، وبالطبع ضم كلاً منا سريره كزوجته التي اشتاق إليها.

ثم صحونا بالمساء على صوت إسراء التي تريد أن ترى ماذا جلبنا لها معنا من تلك الرحلة الطويلة.

شدت يدي من السرير وهى تردد: هيا يا عمي سالم أريد أن أرى ماذا جلبتم معكم.

تناولت بعض الماء بيدي وغسلت وجهي ورأسي، ثم تجمعنا كلنا ببهو البيت. أنا وأبي، أشجان وعلي وبالطبع المشاكسة إسراء.

جلب علي الشنط وبدأنا نخرج الهدايا.

وبالطبع أول ما أخرجنا من الشنط، كانت هدايا أبي الحاج عبد القادر.

أحضر له علي عباءة صوف سوداء مزينة من طرفيها بخط أصفر، وأحضرت له قماشة حتى يفصّلها جلباباً وشالاً رمادي اللون.

وسألنا أبي قبل أن يمسك هداياه ويتفحصها، وأين ما جلبتموه لعامر وزوجته وعمكم راضي وريم ابنته.

فضحكتُ وأنا أنظر لعلي وقلت له: كما أخبرتك سيسأل عنهم أولاً، لا تقلق يا أبي فلم ننسهم كما أنني أحضرت معي بعض الأشياء للخالة تريز ومينا ومحمود وزوجته.

أخرجت مسبحتين وسجادتي صلاة وبعض التمور وقلت لأبي هذا للعم عامر وزوجته، وأخرج علي أيضاً بعض الزبيب ووشاح أزرق وقال ذلك لريم وهذا مصحف بخط كبير لعمي راضي لأن نظره قد ضعف بعض الشيء، فابتسم أبي ابتسامة مليئة بالرضا.

ثم أتى دور أشجان التي أهداها علي عباءة بنية قطيفة مليئة بالورود، وأهديتها أنا شنطة سوداء تحمل بها متعلقاتها.

ففرحت وشكرتنا على صنيعنا، وقامت تجرّب عباءتها، ووضع علي يده على صدره وهمس لي: أخشى أن تكون ليست بمقاسها.

كتمت ضحكة بداخلي، واكتفيت بالابتسامة حتى لا تلاحظ أشجان ذلك.

ثم تعلقت إسراء بكتفي وهى تقول: ماذا عني يا عمي سالم ماذا أحضرت لي.

فقلت لها: آه، يبدو أننا نسيناكِ يا إسراء.

لوت شفتيها وعقدت حاجبهيها تستعد للبكاء، فلحقت ثورتها وضحكت قائلاً: بالطبع أمزح معك، تعالِ لتري ما أحضرت لك.

كان حذاء صغير برباط يناسب قدمها ولونه زهري جميل. فتراقصت إسراء فرحاً لذلك.

ثم قبّلتها وأعطاها علي أيضاً بعض الحلوي التي أحضرها لها.

كان الحذاء ملائماً لقدم إسراء، والعباءة فضفاضة بعض الشيء لكن أشجان كانت سعيدة بها فحمدت الله أنا وعلي أن الهدايا قد أعجبتهم.

ولمحتُ وشاحاً لونه بنفسجي كالزهرة فعمدت أن أخفيه حتى لا يجذب عيني أشجان وتسأل إلى من هذا!، ولا أعلم لماذا شعرت أنها رأتني وأنا أفعل ذلك لكنها تجاوزت! أو لم تهتم.

فتمتمت الحمدلله.!

ثم قمت وأخبرتهم أني أحتاج إلى النوم وحملت معي شنطة بها الوشاح وهدايا مينا ومحمود وحور، وأخبرت أبي وعلي أنني لن أقدر على الذهاب

للعمل غداً، وأنا أقول بداخلي إنه الخميس لن أضطر أن أرحل عن المحل بحجة ككل مرة فلن أذهب من الأساس.

- فقال علي: حسناً سأذهب أنا، فلقد اشتقت للسوق فعلاً.

- وقبل أن أذهب للغرفة لاحظتُ أن أبي ليس بخير أو أنه مرهق لا أعلم، فدنوت منه قائلاً: أأنت بخير يا أبي.

- قال: الحمدلله، اذهب أنت وارتاح كان سفراً طويلاً عليك يا بني.

قبّلت يده، ثم دخلت الغرفة، ووضعت الشنطة جوار السرير ونمت للصباح.

*****

بنفس الموعد وبذات المكان، جلستُ منتظراً مايا بهديتي التي أخفيتها.

كنتُ أحب ذلك الوقت الذي كنا نتقابل به فعلاً، فقد قرأتُ في بعض الكتب أن في تلك اللحظات التي تسبق الغروب، تتجلى المشاعر الجميلة الممزوجة بالهدوء والحب، فكم من شاعر ألهمه وقت الغروب الساحر، وكم من رسّام أهداه ذلك الوقت الطاقة والإبداع.، من أراد أن يشعر بالحب والحنين فعلاً فإن تلك الأوقات هى ملاذه وملجأه.

تأخرت عليّ مايا في ذلك اليوم قليلاً وبدأت أقلق عليها ولكنها أتت بالنهاية، وعلى وجهها علامات الضيق.

- أقبلت عليّ وقالت: آسفة يا سالم فأمي كانت بحاجة إليّ لأساعدها ببعض أعمال المنزل اليوم، وكنت أحاول التملص من هنا حتى لا أغيب عن لقائنا الذي جعلته أنت نادراً.

- جعلته نادراً لأني لا أريد أن يشك بنا أحداً يا جميلتي، فأنا أخشى على لقائتنا تلك أن تنقطع لأي سبب كان، وأنت تعلمين أنه لو علم أحد بذلك فستكون كارثة، فأنا أحمد الله بكل مرة أن لا أحد يمشي في ذلك الوقت ناحية الشجرة العجوز فقد يلمحنا أو شيئاً من هذا القبيل.

هيا أخبريني ماذا فعلت في ذلك الأسبوع الذي لم أراك فيه.!

- شرعت تحكي ذات الحكايات مرة أخرى وأنا أستمع إليها.

قالت لي: بالمناسبة يا سالم أصبحتُ أريد أن أسمع أكثر عن قصة فلسطين، لا أعلم لماذا ولكنني أريد أن أعرف أكثر عن تلك القصة.

فهللت مستبشراً وفرحت لقولها، على الرغم من أنني لا أعرف سبب شغفها أن تسمع تلك المرة، حتى أنني شعرت أنها تستمع إليها كقصة للتسلية، ولكنني قلت: سأحكي لك يا حبيبتي على الرحب والسعة..

اعتدلت في جلستها كطالب علم يستعد لتلقي المعلومات ثم قالت: عن ماذا ستحدثني اليوم.

- اعتدلت أن الآخر ثم قلت لها بصوتٍ حاد كمعلم: أريد أن أحدثك عن مجموعة أشياء حدثت بتدبير وترتيب منظم حتى الانتداب البريطاني الذي

زاد الغمة أكثر، مثل."صندوق الائتمان اليهودي"[1]. "الشركة البريطانية الفلسطينية"[2]. "الصندوق القومي اليهودي"[3] الخ..

كلها مؤسسات أنشأت وخرجت من العدم، والتي لم يكن يعرف أحداً ما هو مصدرها. الذي كان بالطبع."المنظمة الصهيونية"[4].

كان هدف تلك المؤسسات الأوحد هو شراء الأراضي الفلسطينية مهما كان ثمنها ومهما كلفهم الأمر من إغراءات وطلبات، والذي يحقق لهم بالطبع هدفهم في توطيد وجودهم في فلسطين واستيطانهم بها عن طريق طرد العمال الفلسطينيّن، وإعمال اليهود ذاتهم بها حتى تلغي انتماء الأراضي الفلسطينية للفلسطنين بطريقة مدروسة.

---

[1] – صندوق الائتمان اليهودي: بنك صهيوني أنشئ عام 1899.

[2] – الشركة البريطانية الفلسطينية: أنشأت في يافا كفرع لصندوق الائتمان اليهودي... من كتاب (تاريخ الفكر الصهيوني).

[3] – الصندوق القومي اليهودي: أنشأ عام 1901 لمؤسسة(كيرين كايميت)

[4] – المنظمة الصهيونة:(طبقا لمنصة ويكيبيديا). فأنها منظمة نشأت عام1897، في مؤتمر بازل بسويسرا، وهدفت لإقامة وطن قومي لليهود، أنشأت المنظمة مؤسسات مالية لدعم وتمويل المشروع الصهيوني كان منها ما ذكر سابقا من مؤسسات خرجت من العدم، كان مقر المنظمة هو فيينا في البداية ثم كولونيا ثمبرلين ثم لندن.

ثم استقرت في القدس الفلسطينية (بغير وجه حق) عام1936..

وبعد وضع الخطة وتأسيس المنظمات الخفية، اتحد كل الأغنياء اليهود على تنفيذها مهما كلفهم الأمر.

– قالت مايا بعدما كانت مُنصتة لحديثي بشغف: وهل حققت كل تلك المؤسسات الخفية المراد؟

– حتى بعد كل ذلك المجهود الذي قاموا به، وجد اليهود أنفسهم بعد كل ما فعلوه لا يملكون شيئاً يذكر من أرض فلسطين، فحتى بمقارنتهم بالملاك العرب الآخرين كان كل ما يملكونه قليل.

– فقالت ويكأنها تكمل كلامي: حتى جاء الانتداب البريطاني.

– هل أكمل لك قصته أيضاً.!

– نعم أريد أن أعرف أكثر أكمل.

– فتنهدت مستبشرًا وأكملت.،،،

كان الانتداب البريطاني بمثابة بداية لتسلسل ووفود أعداد مهولة من اليهود إلى فلسطين، وحتى تلك اللحظة يا مايا نحن تحت وطأته يتوافد الكثير وتتزاحم الهجرات إلى أراضينا.

فمثلاً:

"في بداية فترة (1923)م. تناولت بريطانيا صك الانتداب الفلسطيني لإدارة البلاد، ولم تكن بريطانيا بحاجة إليه في الحقيقة، فقد باشرت سلطتها على فلسطين قبل ذلك بسنوات.

وفي آذار/ مارس (1925م) قام "بلفور" بزيارة للقدس للمشاركة في افتتاح الجامعة العبرية التي شيدت على أرض عربية فوق جبل الزيتون، كانت السلطات البريطانية قد انتزعتها عام(1918م) من أصحابها بالقوة وأعطيت للصهيونيين.

وخلال العشر سنوات الأولى من الانتداب البريطاني دخل فلسطين، ما يقارب (76400) مهاجراً.

تفجرت الثورة التي كان شرارتها هي حادثة البراق في (سبتمبر 1928م)، حيث حاول اليهود الاستيلاء على الجدار الغربي للمسجد الأقصى الذي يملكه المسلمون، وهو ما أدى الى حشد التأيد العربي للفلسطنين والذي قاومته السلطات البريطانية بكل قوة وعنفوان.

وفي عام (1930م) وصل عدد المهاجرين اليهود إلى (104.750)، ووصل خلال الستة أعوام التالية إلى (284.645)، وهذه الأعداد بالطبع بخلاف الاعداد الهائلة التي دخلت بطريقة غير شرعية.

كما دلت الإحصائيات الرسمية على أنه بحلول عام (1935م) أصبح عدد اليهود في فلسطين ضعفي ما كان في (1929م) بحيث غدا اليهود يمثلون ربع جملة السكان.

ثم أوصت اللجنة الملكية في عام (1937) بأنه لا يمكن حل القضية الفلسطينية إلا عن طريق مشروع تقسيم فلسطين.

وهو بالطبع ما نال رفض الجميع، لأن قرار التنفيذ ذلك كان بمثابة تنفيذ الخطة الصهونية، وكان الرد العربي الفلسطيني على قرار التقسيم هو الاستمرار في الثورة ما حذا بتأجيل طرح قرار التقسيم، وبقيت ثورة(1936) مشتعلة حتى نشوب الحرب العالمية الثانية..

و من بضع شهور في سبتمبر (1947م) شكلت لجنة في الأمم المتحدة بناء على طلب من الحكومة البريطانية وأطلق عليها لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطيين.

وقد أفضت تلك اللجنة إلى قرار التقسيم ثانية الذي نعيش في أعقابة الآن، ولا يزال الرفض قائماً بكل أرجاء فلسطين والوطن العربي، حتى يرجع الحق إلى مستحقية. "

كما أن الناس يتحدثون الآن يا مايا أن الولايات المتحدة على وشك الاعتراف بالكيان الصهيوني كدولة تسمي إسرائيل، (بالطبع لا يوجد كيان بذلك الاسم)!.[1]

وإبّان ما يحدث الآن يا مايا فالجميع ينتظر حلول الأسوأ، وحتى أنا وأنت فلا أعلم ماذا سيكون مصيرنا،! إلا إذا..

---

[1] – تم الاستعانة في كتابة تلك الجزئية بوكالة أنباء وفا الفلسطينية. أحب أن أضيف، وأذكر القارئ بالمذبحة الشنعاء "دير ياسين" الواقعة قرب القدس، حيث اقتحموا القرية بالأسلحة الثقيلة ومثّلوا بأهلها فراح ضحية هذه المجزرة (250) فلسطينياً أغلبهم من النساء والأطفال، ووصف الكاتب اليهودي "جون كيمي" هذه المذبحة المريعة بأنها "أبشع وصمة في تاريخ اليهود".

- صمتُ للحظة. فقالت: إلا إذا ماذا يا سالم؟.

- فأردفت: اقتنعت بكلامي، وآمنت بي وصدقتيني وانضممتي إليّ، أعلم أن ما أقوله لك يبدو غريباً وصعباً لدرجة لا تصدق، ولكنني أؤمن بحبنا.

- أمسكت يدها وضغط عليها قائلاً: فكري يا مايا، هذا ما أريده لا أريد منك جواباً الآن، لكن اعلمي أنني أنهيت ما أريد وقد انتهت المهلة التي طلبتها منك قبل أوانها، وأنني لا أريد أن أتركك، وكذلك لن أتنازل عن بلدي وأرضي مهما كلفني الأمر.

ولكن عليك أن تفكري، وتأتيني برد سريع فأنا أشعر بأن ذلك السيء الذي ننتظره قادم بسرعة شاهقة، وقد لا نتمكن من الجلوس هكذا ثانية، لا أحد يدري.

باعدت نظرها وأطرقت تفكر كثيراً، فجذبت انتباهها واضعاً وشاحاً على رأسها.

- فقالت لي بتعجب: ما هذا؟.

- ذهبت في رحلة عمل وأتيتك بهذا كهدية أتمنى أن تعجبك، ما أجملك بهذا اللون يا مايا.

أصابها الخجل مرة أخرى، والذي أضفى على جمالها جمالاً.

وفي تلك اللحظات طلبت مني أن ترحل وهى تحمل على كاهلها حملاً وخياراً ثقيلين، فلا تعلم كيف ستفكر في ذلك حتى، لم تكن هديتي لها مخففة عليها كما أردت، فإنها بموقف صعب، فاكتفت بالابتسام شكراً لي على الهدية.

وذهبت..

وتذكرت مقطوعة كنت قد قرأتها قبل ذلك حينما رأيتها ترحل وتغيب هي والشمس بذات الوقت، تغيب الشمس على استحياء، مودعةً الأفق الجميل لهفةً وخجلاً، وكأنها تريد أن تقول له بأنها لا تطيق الوداع، فتمتلئ السماء بحمرة الخجل، تتشوه الألوان وتصبح كلها بلون واحد، وهو لون الغروب.

وفي طريقي للبيت كانت تنتابني الكثير من التساؤلات والأفكار عما ستكون نتيجة ذلك، هل ستتخلي مايا عن أهلها وطريقهم المملوء بدماء الفلسطنين، أما ستتخلي عني أنا.

ركلت بعض الحصي في طريقي، وقلت: لنترك الأمر للوقت، فعاجلاً أم آجلاً سنعرف!.

وبينما أسير مشغول البال، حتى شعرت بضربة قاسية فجأة على رأسي أوقعتني أرضاً، كنت أشعر بدوار حاد حتى أنني لم أكد أدرك ما يدور حولي للحظات.

ولكنني سمعت صوت عبد الهادي، يتباعد عني وهو يقول: ابتعد يا مجنوون. ابتعد.

ظل يكررها حتى اختفى صوته بين طيات الظلام، كما لو كان الظلام قد ابتلعه هو وعصاته وصوته.

تحاملت على نفسي واستطعت أن أقف، ورأسي يكاد أن ينفجر من شدة الدوار، وذهبت وأنا أشتاط غيظاً ودواراً بذات الوقت، نفضت التراب عن ملابسي ومشيت إلى البيت.

*****

بعد يومين بعدما هدأت قليلاً عن التفكير، وكنت بالطبع قد قررت عدم إخبار أحد بأمر عبدالهادي، ذلك حتى لا يظنوا أنني جننت.

ذهبت إلى مينا لأعطيه هديته هو والخالة تريز، وبعد ذلك نذهب لمحمود الذي أتمنى حقاً رؤيته.

- الخالة تريز اشتقت إليك يا أمي..

- أين كنت يا بني كل ذلك الوقت، قالت الخالة تريز بصوت حانٍ.

جثوت على ركبتي ثم جلست مقابلاً لها وخلفي شمعة منتصبة على المنضدة تضئ الغرفة إضاءة نسبية، بينما يعد مينا بعض المشروبات.

- كنت برحلة تجارية أنا وعلي لما يقارب أسبوع.

- فنظرت بتعجب، رحلة تجارية!، أعلم أنكم تأتون بالبضائع من الفلاحين والتجار بالقرى القريبة حولنا كل عام.

- أخرجت زفيراً عميقاً، إنه موضوع يحتاج لشرحٍ طويل..

دعك من ذلك الآن سأحدثك عنه لاحقاً، ثم أردفت وأنا أعطي لها كيس بلاستيكي أسود تفضلي يا خالة.

- ما هذا يا ولدي؟.

- إنها بعض التمور فأنا أعلم كم تحبينها.

- شكراً يا سالم يا ولدي.. قالتها بابتسامة تنبعث منها أحاسيس الأمومة.

- جاء مينا حاملاً بعض الأكواب من الشاي، ويردد وأين هديتي أنا أيضاً.

- سأعطيها لك عند محمود، هيا غير ملابسك، بينما أنهي كوب الشاي مع الخالة تريز.

استغرق مينا بعض الدقائق في تغير ملابسه، والتي استغلتهم الخالة تريز في الحديث عن الماضي بقصصها المثيرة، الجميلة التي اعتادت تشاركنا بها مذ كنا أطفال.

ولم أمل يوماً من سماعها حتى ولو حكتها آلاف المرات، فإن بها شيء غريب يجبرك على سماعها بنفس الرغبة كل مرة، حتى ولو كنت تعرف الأحداث وتحفظها من كثرة تكرارها.

إن كبار السن قادرون على سحرك بمجالستهم ويرجعونك طفلاً بكل مرة، فتشعر بدفء وأمان لا مثيل لهما، فكما أن كلامهم بسيط إلا أنه مليء بالمعاني والحكم التي يحتاج إليها كلاً منا بحياته.

أنا جاهز، قالها مينا مقاطعاً جلسة الماضي التي أنعم بها.

- وثبت واقفا، وقلت لها وقد ارتسمت على شفتاي بسمة: سنكمل حديثنا لاحقاً يا خالة!.

- بالطبع سأنتظر زيارتك الثانية فلم تحك لي أنت، كما أنني أريد أن أحدثك بأشياء أخرى لم تتسع تلك الجلسة لها.

- اتفقنا يا خالة، قلتها وأنا أودعها.

*****

في غرفة اجتماع الضيوف بمنزل محمود، جلسنا أنا ومينا ولكننا لم نكن وحدنا.

بل كان معنا إبراهيم، شاب قمحي البشرة، عيناه سودواتان، يمتلك ذراعين قويتين وقامة قصيرة، وكما أخبرني أحد ما لا أذكر من هو تحديداً، أنه تقدّم لخطبة ريم ولا أعرف إن كان يعلم أنها تحبني أم لا.!

ولكنني على أي حال لا أُكن له غير كل احترام وحب، لأني كما أخبرني محمود فأنا أعلم أنه أحد المقاومين الذي كان بصحبة راشد دوماً، ويمكنني أن أخمن أنه هنا الآن ليخبرنا عنه.

- دخل محمود علينا يحمل صينية من الشاي وكوب قهوة لإبراهيم، ثم عرّفنا على بعضنا ثانيةً لأن علاقتنا لم تكن قوية، فخشي أن نكون لا نعرف بعضنا.

ثم قال: خيراً أنكم أتيتم كنتُ سأذهب لكم أنا وإبراهيم، إن إبراهيم يريد أن يخبرنا شيء هام عن راشد.

فانتبهنا أنا ومينا، واستمعنا جيداً لما يقول.

- قال إبراهيم بصوت متهدج حزين: أظن أنكم علمتم مسبقاً أن راشد اختفي ولا أحد يعرف مكانه إلى الآن، وأعتقد أيضاً أنكم تعلمون أنه ينضم لمجموعة من الشباب يقاومون الاحتلال في بلدنا بكل بسالة وقوة..

فأومأنا برأسنا موافقين على كلامه.

وضع كوب القهوة عن يده ثم أردف: سأخبركم الآن ببعض الأشياء التي لا يجب أن تخرج عن دائرتنا تلك إلا بموافقتنا جميعاً.

إن راشد لم يكن عضواً عادياً في تلك المجموعة بل كان من القادة هناك، وكان مؤخراً يحاول توسعة تلك المجموعة من الشباب وتقسيمهم على باقي القرى والبلدان التي تتعرض للظلم والاستغلال.

وقد نوى قبل اختفاءه أن يجتمع بكم، ويحاول تجميع كل شباب القرية هنا ولكن للأسف تم اختطافه.

فلمعت بذهني تلك الفكرة التي شككت بها وأخبرت محمود عنها، أن يكون لديفيد ذلك يد في اختفاء راشد، وآثرت أن أصمت وأكتفي برسم علامات التعجب على وجهي.

أكمل حديثه بوجه يملؤه غيظ وتجهم: قبل اختفائه بفترة كان يحاول الصهاينة الإستيلاء على بعض المحاصيل من أحد الفلاحين بالقوة، ولكن تصدى لهم راشد وأتباعه وبالرغم من أن أحد لم يُقتل من الجانبين إلا أنها كانت بادرة من راشد ليعلمهم أنه موجود وأنه لن يسمح بحدوث ظلم أو قهر قدر ما يستطيع.

وبعدها بفترة قليلة اختفي راشد، ولم يعلم أهله باختفائه إلا من مدة صغيرة، فكل ما كانوا يعرفونه عنه أنه مسافر، وذلك لأن الشباب لم يريدوا أن يخبروهم بشيء حتى لا يزعجوهم، وبالنهاية لم نجد بداً من إخبارهم.

نظرنا لبعضنا أنا ومينا متعجبين من ذلك الحديث.

ثم أكمل إبراهيم وقد بدا عليه الحماسة: أخبرني القائد أن علي أن أكمل ما أراده راشد سابقاً، والذي يظن الصهاينة منذ فترة أنه حدث وأنه يوجد مجموعة من الشباب تقاوم هاهنا في قريتنا والتي ستكون مركزاً مهماً في تلك المقاومة.

والذي من أجله اختطفوا راشد ولا نعلم ماذا فعلوا به تحديداً، ولكننا نثق تماماً أنهم مهما حاولوا استخراج معلومات منه فلن يستطيعوا ذلك.

- ولكن كيف خُطف راشد؟ سألته مقاطعاً حديثه.

- حقيقةً لا نعلم إلى الآن ماذا حدث تحديداً، وكيف عرفوا طريقه واستطاعوا فعل تلك الخطوة.

- ساد الصمت لفترة، ثم قال محمود وهو يربت على كتف إبراهيم: نحن معك يا إبراهيم، ولن يتردد أحدا منا سواءً أنا أو مينا أو سالم بأن يفدي بنفسه في سبيل بلده لو تحتم الأمر.

- قلت له وأنا معك يا إبراهيم ثم تبعني مينا.

- بارك الله فيكم قالها إبراهيم، ثم أضاف: سأخبر محمود بكل ما هو جديد وهو بدوره سيوافيكم بالمعلومات وما الخطوة القادمة التي سنفعلها تجاه الاحتلال، فكل ما نعرفه الآن أنهم يهمّون بشيء مختلف تماماً عما سبق. أعاننا الله.

ثم قام وسلم علينا وخرج وفي هدوء..

حينما رجع محمود من إيصال إبراهيم للخارج.

– قلت له: كما أخبرتك يا محمود أني أشعر أن ذلك اللعين الذي يدعي ديفيد قد فعل شيئًا مع راشد.

– أشعل مينا غاليونه وقال: سمعت عن ديفيد هذا أمور لا تخرج إلا من رجل لم تعرف الرحمة طريقاً لقلبه.

سمعت أنه قام بتفجير بيت ومات كل من فيه من أطفال ونساء وكبار، ولم يكتشف أحد أنه الفاعل، إنه ذكي للغاية ولا يترك وراءه جرائمه المتعددة أثرًا.

– قال محمود: أياً يكن فسنقاوم، ولن نترك أرضنا لهم مهما كلفنا ذلك، أخبرني إبراهيم أن علينا أن نجّمع أكبر عدد من الشباب الذين نثق بهم في الفترة القادمة وهم سيخبروننا ماذا سنفعل بعد ذلك.

– فقلت وأنا أهم بالرحيل: خيراً إن شاء الله، وقام معي مينا.

– ثم خرج محمود معنا وقال لي: سأسير معك قليلا، فأوصلنا مينا ثم أكمل معي محمود.

– بادرته قبل أن يبدأ بالسؤال: لقد أنهيت تلك المسألة يا محمود.

– سأل محمود متعجباً: ماذا فعلت؟

– تركت لها القرار، أنهيت لها ما استطعت وما أردت أن أقوله لأخبرها أننا على حق، وأعتقد أنها أدركت بأنها لو أرادتني فستنضم إليّ، وتترك بيت الأفاعي التي تعيش به.

– فقال محمود وهو متفاجئ بحديثي: وماذا ستفعل لو انضمت إليك إذاً، ورضيت أن تترك ما تربت عليه لأجلك.

- لا أعرف بعد، سأنتظر جوابها.

- تنفس محمود شهيقا طويلاً وعدل نظارته ثم قال: اعلم يا أخي أنه لا يمكن أن نثق بهؤلاء، كما أنني أوقن تماماً أنها لن توافق.

- قلت بعدما توقفنا أمام البيت: أياً كان ردها فهو قرارها وهي حرة تماماً به، إننا الآن بصدد أمر هام وعلينا أن نفكر ملياً بكل خطوة نقوم بها.

- فوافقني على كلامي وقال بعد أن سلّم عليّ وهو يرحل: حسناً، أبلغ سلامي للعم عبد القادر وعلي وقبّل إسراء من أجلي.

- إن شاء الله..

*****

يقترب مني أحدهم بخطوات وئيدة أسمع وقعها على الأرض المبللة ووجه مغطى لا أستطيع معرفة من خلفه، وأنا كما لو كنت مكبلاً ولا أستطيع الحركة، ثم يصفعني على وجهي ويردد ابتعد يا أحمق.

ثم يكشف عن وجهه فجأة، فغر فمي واتسعت عيناي صدمة وحاولت التملق وأنا أقول ماذا تريد ماذا تريد..!

ثم صحوت يتصبب العرق على جبيني ويعلوني التوتر، وأردد أستغفر الله العظيم.

خرجت من الغرفة لأشرب كوب من الماء، حينما سمعت صوت أشجان وعلي في غرفة أبي وهم بجواره، وهو يتوجع بشكل فظيع.

- ارتعدت أوصالي وذهبت لهم مسرعا، وقلت: خيراً ماذا حدث بتلك الساعة المتأخرة.!!

– فقال لي علي وهو جالس على الأرض بجانب أشجان: إن أبي تدهورت حالته فجأة وأنه لا يستطيع التنفس إلا بصعوبة.

– نظرت إليّ أشجان بعينين ناعستان: ما الذي أيقظك الآن؟!

– رددت بإقتضاب: كابوس.

ثم طلبت منهم الرحيل فقد فارق النوم أجفاني، وسأظل أنا بجانب أبي إلى الصباح إذا احتاج لشيء، وعند بزوغ الفجر أحضر لنا طبيب يا علي.

– فخرج هو وأشجان إلى غرفتهم وجلست إلى أبي ولا أسمع منه إلا التوجع والسعال والآهات. ثم أفاق قبيل الفجر لدقائق وكان كما لو كان ينازع حتى يتحدث فقلت له: أنا أسمعك يا أبي تحدث.

– بعد الكثير من السعال، أخذ شهيقاً ثم قال بصوت متعب: يبدو أن النهاية قد اقتربت يا سالم، كنت أريد أن أراك متزوجاً ومستقراً ولكن يبدو أنني لن أستطيع، اعلم يا بني أن ريم ابنة عمك تحبك، وأنها انتظرتك طويلاً، أريدك أن تسترد عقلك يا بني.

لقد أخبرني عامر عن أمر تلك الفتاة اليهودية، وقال لي أيضاً أنك أخبرته أنك نسيت ذلك الأمر تماماً لكن قلبي يخبرني عكس ذلك يا بني.

حاولت أن أتحدث فأوقفني قائلاً: لا أريدك أن تخبرني بأي شيء ولكن فقط "اعلم أنه لا شيء يعوض الوطن"، وأنا أثق بك يا بني.

– كنت محتاراً فيما يجب علي أن أقوله، ولم أجد كلاماً فقلت له: اطمئن يا أبي أعلم ما تقوله تماماً، كما أنك ستحيا لترى شمس جديدة تشرق على أرضنا ونكون نحن فقط تحت سمائها ولن يبعدنا عن ذلك شيء.

- أنا لست متشبثاً بالحياة يا بني، فسوف أذهب إلى جوار أحب شخص لقلبي أمك الغالية، ثم غط في سبات عميق.

قبلت يده وجلست بجانبه، أدعو الله أن تمر تلك الأزمة بخير.

وبعد الفجر خرج علي إلى إحدى القرى المجاورة وأتى بطبيب.

واصطحبه إلى غرفة والدي، وكنت بالخارج أذرع الأرض جيئة وذهاباً، قلقاً على أبي.

- وحينما خرج الطبيب سألته وكلي أمل رغم أنني وجدت الإجابة على وجه علي سابقاً، ماذا به؟

- لا يوجد ما يمكن فعله، إن أمره بيد الله.

فأصاباتني صدمة من حديث الطبيب وجلسنا حوله ننتظر تلك اللحظة، وكلنا مليئين باليأس والحزن..

وبعد صلاة العصر خرج علي من الغرفة، ثم قال وعيناه تسيل منها الدموع: البقاء لله، لقد رحل أبي إلى جوار ربه.!!

أصابت الجميع نوبة من البكاء والنحيب التي لم نعهدها سابقاً ولم تمر بنا قبل ذلك.

وشيعت جنازة الحاج عبدالقادر بعد صلاة العشاء، بمشهد مهيب من أهل القرية وأناس آخرين من قرى مجاورة، وأناس لم أعرفهم قبل ذلك، كان لأبي الحاج عبدالقادر سمعة طيبة، وقد وضع الله محبته في قلوب كل من رآه ولم يتحدث عنه أحد بسوء أبداً.

لأول مرة أشعر بالوحدة والضعف حينما مات أبي، فلن تكون يوماً رجلاً ولن تشعر بمسؤولية حقيقية مهما اشتد بنيانك وامتلكت شارباً ويدان قويتان، حتى يرحل عنك أبوك، حينها فقط تشعر بأن عليك أن تصبح رجلاً، لا يوجد من يقف بظهرك، لم يعد موجوداً من تستمد منه الأمان والاطمئان، وعليك الآن أن تواجه الحياة كرجلٍ حقيقي.

مرت علينا أيام صعبة ومُرّة كالعلقم، ونحن نستقبل العزاء في أبينا الحاج عبد القادر، كانت أيام مرهقة وليال مؤلمة نفسياً بطريقة بشعة.

ستظل الكلمات التي تتلقاها والأحضان الحارة وقبلات العزاء لا شيء، في مواجهة ما تعانيه وحدك في غرفتك ليلاً مستحضراً ذكريات من رحل وخلّف بعده البكاء والنحيب والألم على فقدانه.

صراع ليلي كل يوم، ونوم يخاصم العيون، الألم يصرعك والحزن يناصره وأنت طريح الفراش تبكي كطفل بدون توقف.

مؤلم هذا الشعور بأن تقول بكل مرة الحاج عبدالقادر رحمه الله.

فتحتُ الصندوق مرة أخرى وأريت عمر وتتساقط من عينيَّ الدموع، صورة أبي الحاج عبد القادر رحمة الله عليه.

- أشرت إلى قفطان زيتي اللون وطلبت منه إحضاره، ضممته إلى صدري وأنا أبكي وقلت له هذا كان لأبي يا عمر.

- ناولني عمر منديلاً حتى أجفف عيني، وقال لي: يبدو أنه ذلك الصندوق سيؤلمك كثيراً يا جدي.

– نعم يا بني فيه كل حياتي تقريباً، ولكنني سأكمل لك القصة علي أي حال.

– فقال بهدوء: حسناً يا جدي.

*****

مرت فترة ليست بقليلة عليّ حتى استطعت أن أرجع بها للحياة كما كنت، واستعنت على ذلك بمساعدة أخي بالتجارة وإشغال نفسي أكثر مما كنت حتى أنني أصبحت أصحو قبله وأتوجه للمحل قبله، وأذهب للبيت بعده بكثير، كما لو كنت لا أريد أن أمكث بالبيت الكثير.

وقد فوّت أسبوعاً أو أكثر من غير رؤية مايا ولم أعرف ما ردها إلى الآن، وتعجبت من أنها لم تحاول السؤال عني.

فأنا أعتقد أنها تعلم ما حالتي وما حدث لي من مصيبة، ولكنني اعتبرت أنها لم تكن تعرف.

وأما عن الشباب فعلى ما أعلم أن محمود قد جمع مجموعة لا بأس بها من الشباب في فترة انشغالي بعد وفاة الحاج عبد القادر، وغدا هو القائد في منطقة قريتنا والقرى المجاورة.

– وذات يوم عدت باكراً من العمل، فأعدت لي أشجان الطعام وقالت: بعد أن تنهي طعامك سنتحدث قليلاً.

– فقلت لها في ملل: حسناً يا أشجان.

– قدَمَتْ إليّ بكوب شاي إلى الشرفة، ثم اتخذت كرسياً بجواري وقالت: هناك أمر هام أجّلته كثيراً، وأريد أن أحدثك عنه يا سالم.

– فرددت كما لو كنت أعلم أنها ستحدثني بحديثها المعتاد عن ريم، وأن عليّ أن أستقر وإلى آخره من تلك الأمور: قولي ماذا تريدين يا أشجان.

– لماذا كذبت علي سالم؟

– فجاوبتها متعجباً: كذبت عليك في ماذا.

– حينما رأتك إسراء أنت وتلك الفتاة اليهودية.

كان من المفترض أن أكون مصدوماً حين سماعها تقول ذلك، لكن لا أعلم لماذا لم أبدي تلك الصدمة كما لو كان فقدان أبي كان أكبر صدمة بحياتي، وبعدها كل شيء سيهون.

لماذا لم تخبرني يا سالم أنك عرفتها وعرفت من هي وأيضاً تقابلها سراً، كما أنني رأيت ذلك الوشاح الذي أخفيته ولم تتحدث عنه، وعلمت أنك أحضرته من أجلها، ولم أرد أن أحدثك في شيء من ذلك حتى تمر صدمة الحاج عبدالقادر رحمة الله عليه.

– وضعت كوب الشاي عن يدي، وقلت لها: ماذا كان عليّ أن أخبرك يا أشجان أنني عشقت فتاة محاطة بالثعابين، أحببت فتاة من أعدائنا، لم أكن أعرف ماذا كانت ستكون ردة فعلك وقتها وكنت أحاول تحاشي أي تشتيت في تلك الفترة.! ثم رق صوتي وقلت لها: صدقيني يا أشجان لم أكن أقصد أن أخفي شيئاً، كل ما في الأمر أنني أردت أن أفكر ملياً في ما يتوجب عليّ فعله.

صمتت هنيهة ثم نظرتُ إليها نظرة مطمئنة وأكملت: لا تقلقي لقد أنهيت ذلك الموضوع تماماً وقررت التفرغ للعمل وليس لأي شيء آخر.

– قالت بصوت يشوبة الخوف: إنها مثلهم يا سالم كلهم نفس الشيء لا تثق بهم، و أريدك أن تعدني حالاً أنك لن تقابلها ثانيةً فأنا أثق بك وأعرفك حق المعرفة، لكن لا أضمن أن يعرف أحد آخر فيقال عنك أنك خائن، لقد خمنت أنها الفتاة اليهودية بعدما أخبرتني إسراء أنها رأتكما عند أطراف القرية نحو البيت الذي تم بيعه إلى أحدهم، أخشى أن يراكما أحد غيرها.

وعدتها بذلك، ولم أكن أسايرها فقط في الحديث، بل عقدت العزم على أن لا أزور الشجرة العجوز مرة أخرى، وأنتظر حتى تكون قد اتخذت قرارها.

أما عن قلبي فسوف أقسو عليه ولن أنصاع لما يصوره لي عقلي من خيالاتها وصورها.

وقفت من مجلسي وأخبرتها أنني سأذهب الآن لمحمود، لا تقلقي يا أشجان لقد انتهى ذلك الموضوع للأبد.

كنت أقول لها ذلك ولا أدري ماذا سأفعل لو كذّبت مايا كل تلك التوقعات، وهربت إلى صفي لتحيا معي.

طردت تلك الأفكار عن ذهني وخرجت.

*****

ذهبت إلى محمود لم أجده بالبيت وأخبرتني حور أنه ذهب مع مينا، وتذكرت أنه يجتمع هو والشباب في بيت قديم كان لأبي محمود قبل وفاته.

ذهبت إلى البيت، وألقيت السلام عليهم.

عرّفني محمود عليهم ولقيت ترحيباً من الجميع، كان هناك بعض من الشباب لم يكونوا من شباب القرية، فلم أكن أعرفهم حتى شكلياً.

– أخذني محمود للخارج وقالي لي: البقاء لله يا أخي، أريدك الآن أن تتعافى فنحن نحتاجك معنا يا سالم.

– سألته عن الغريبين بالداخل.

– فقال لي: إنهم أتوا ليعلّموا الشباب كيف يستخدمون السلاح.

– ولكننا لا نمتلك سلاحاً يا محمود.

– رد مبتسماً: لقد طالت غيبتك يا أخي، نحن الآن نمتلك عدداً من الأسلحة التي جمعنا أموالها مع بعضنا، هي ليست بالكثيرة نعم ولكننا على الأقل معنا البعض.

– شردت قليلا بتفكيري، فنظر بعيني وقال ماذا بك؟

– فقط تذكرت وصية أبي رحمة الله، حينما أوصاني بوطني وقال لي أن عليّ أن أموت فداه لو استوجب الأمر.

– فردد محمود بتأثر: رحمه الله يا سالم.

– قلت له وأنا أبتسم متحسراً: أتعلم يا محمود كنت أريد أن أحمل القلم بدلاً من السلاح، كنت أريد أن أصبح كاتباً يوماً ما، على الرغم أنني لم أجرب الكتابة مسبقاً إلا أنني أشعر أن بداخلي كاتب جيد.

– بادلني الابتسامة ثم وضع يده على كتفي وقال: لم نختر ذلك يا أخي بل أجبرنا عليه. حينما رأينا أطفالنا وعجائزنا يُقتلون بغير رحمة، وبيوتنا تسلب، وأرضنا تسرق، ولا يحترمون أن للبيت حرمة، ولا للمسجد ولا للكنيسة.

نحن فقط نحاول أن نخبرهم أننا لازلنا أحياءً، لازال بنا قوة وإن كانت ضعيفة ولكنها موجودة وسنظل نبذل كل شخص منا إلى آخرنا في سبيل تراب أرضنا الشريف، لقد كتب علينا أن لا نحمل القلم يا سالم..

- صدقت يا صاحبي..

*****

كنت مؤمناً بأن كل منا هو حر فيما يريد أن يكون وفيما يحب، ولكنني أردت أن أنهي كلام محمود.

لا أتذكر أني أخبرته بذلك لكنني كتبت الكثير من الشعر عن الحب ولوعته. وظللت أكتب حتى بعد كلامي مع محمود ولا أعرف لماذا كذبت عليه وقلت أنني لم أجرب الكتابة سابقاً، لعلي لم أرده أن يري ما كتبت.

استمريت بالكتابة بعدها ولكن كتبت بطريقة مختلفة موضوعات جديدة. الحرية، الوطن، والتضحية.

كنت أريدك أن تراها مطبوعة يا عمر ومنشورة وتُتَرجم في جميع الأنحاء ولكن للأسف فقدتها جميعا.

توالت الأيام وأنا على منوال واحد ما بين البيت والعمل والشباب للتدريب وبعض الأحيان الذهاب لزيارة قبر أبي.

وفي إحدى أيام الخميس بعد صراع طويل مع نفسي.. نويت أن أذهب إلى الشجرة، حتى يتسنى لي معرفة ما الذي قررته مايا وأسمع منها لماذا لم تسأل عني كل تلك الفترة؟! بعد تلك الظروف التي مررت بها، على الرغم من أنني قررت سابقاً أنني لن أفعل ولكني شعرت بأن عليّ فعل ذلك.

أسندت ظهري إلى الشجرة ككل مرة وانتظرت كثيراً ما يجاوز الساعتين، حتى فاض بي الانتظار ومللتُ الجلوس، وعزمتُ على الذهاب.

وبينما أدير ظهري للشجرة حتى سمعت صوت لهاث خلفي، كما لو أن شخص يطارده الضباع من قارة إلى أخرى.

فالتفتُ فجأه فوجدته شاب يسقط أمامي. فهرعت نحوه وحاولت أن أفهم كلامه، لكنني لم أستطع تميز أي كلمة.

كان جسد مليء بالجروح وأثار تعذيب حيواني، خلعتُ قميصي وجففت عن وجهه العرق والدماء حتى تظهر ملامحه المغطاة.

استغرقت وقتاً طويلاً وأنا أحاول أن أتعرف على وجهه وهو يلهث، ويرتفع صدره وينخفض بين يدي، ثم لاحظتُ أنني رأيت تلك القسمات سابقاً... ماذا! إنه راشد..!! !!

الفصـــل الخامس

يا طالعين عين للل الجبل يا موللل الموقدين النار
بين للل يامان يامان عين للل هنا يا روح
ما بدي منكي لللكم خلعة ولا لالالا لابدي ملبوس
بين للل يامان يامان
عين للل الهنا يا روح
ما بدي منكي لللكم خلعة ولا لالالالا بدي زنار
بين للل يامان يامان
عين للل الهنا يا روح
الا غزال لللللذي جوين لللكم محبوس
بين للل يامان يامان
عين للل الهنا يا روح
الا غزال لللللذي جوّين لللللكم ما يدوم
بين للل يامان يامان
عين للل الهنا يا روح !!!!!!!!

- من التراث الفلسطيني -

كنا على أعتاب وبدايات الكارثة، وتحقيق حلم الصهيانة بامتلاك كيانهم الذي طالما حلموا وخططوا له، والذي يعتبر ذلك الحدث أكبر انتصارتهم في العصر الحديث أو على الإطلاق إن صح التعبير.

انتصار بُنيَّ على دماء النساء والأطفال والعجائز، انتصار على الحق وتزوير الحقيقة، سرقة بينة يبصرها الكفيف، يسمع بها الأصم، ويتحدث عنها الأبكم!.

كنت أتسائل دوماً يا عمر، هل فكرة أن ينتصر البطل والذي يمثل الخير والصلاح والحقيقة هي خدعة تمثيلية على الشاشات التلفيرونية، أم أنها حقيقة؟

ثم اكتشفت بعد عمري الطويل ذلك وبعد أن أصبحت كهلاً أن كل ذلك ما هو إلا خدعة، وأن الحق والخير ينتصران فقط في الأفلام. أما في الحقيقة فإن الشر هو المسيطر دائماً.

ولكن أتعلم يا عمر، هناك في وسط تلك العتمة الكاحلة نقطة بيضاء تبث نوراً خافتاً وضعيفًا، وتأبى أن تستسلم للظلام حولها.

وتلك النقطة دوماً ما كانت وستظل دليلاً على خطأ استنتاج كهلاً مثلي، وأن الحق سيظهر وينتصر حتى ولو لم يكن فيلماً تلفيزونياً. تلك النقطة هى أنت يا بني وكل الشباب مثلك والذين يعرفون حق المعرفة قيمة وطنهم ولن يتنازلوا عنه أبداً.

والآن هيا أكمل لك ما حدث.

*****

إبريل 1948.

في بيت محمود القديم (مقر التجمع) كنت قد أخذت إليه راشد قبل يومين. وحاولت أن أساعده قدر ما استطعت وبعدها انطلقت مسرعاً إلى محمود، الذي كان على فراش نومه، وأخذته بدون الخوض في تفاصيل بسرعة إلى راشد، وأخبرته أن يُحضر معه بعض الأدوات الطبية والطعام..

حينما رآه محمود تضاربت المشاعر بداخله بين فرحة وقلق وتساؤل.

ضمدنا جروح راشد وطببناه بخبرتنا البسيطة، والتي أجدت نفعاً الحمدلله ثم طلبت من محمود أن يذهب ليرتاح حتى لا تقلق عليه حور وسأجلس أنا بجوار راشد تلك الليلة.

والآن الحمد لله يجلس بيننا راشد وقد استرد بعض من صحته ولم نرد أنا ومحمود أن نخبر أهله، حتى يتعافي تماماً ويذهب هو إليهم بكامل قوته حتى لا يقلقوا عليه.

- شرب راشد بعض الماء وردد: الحمد لله.

- قال محمود مبتسماً: الحمد لله على سلامتك يا أخي.

- فابتسم له هو الآخر ثم نظر إليّ وتغيرت ملامحه، وشعر محمود أنه عليه أن يقدمني له فهو وإن كان يعرفني شكلاً فقط، فهو لا يعرف من أنا وماذا أصبحت بين الشباب.!

- فقال محمود مسرعاً: إنه سالم يا راشد صديقي والذي أنقذك منذ يومين، وهو الآن من أهم الشباب في مجموعتنا في القرية.

- فنظر لي مرة أخرى كما لو كان سمع عني مسبقاً، ثم قال: أنت إذاً سالم.!

- فأومأت برأسي موافقاً وقلت: أسمعت عني قبل ذلك؟

- بالطبع وهل يخفى القمر يا سالم.

إنك محور حديث الصهاينة الذين خطفوني، على الأرجح أنهم يتحدثون عنك وعن علاقتك بزوجة ديفد ليل نهار، ويخططون كيف سيوقعون بك وماذا عليها أن تخبرك عن حياتها تحديداً حتى تصدقها، كما أنهم يطلقون عليك اسم العاشق الولهان.

صُدمت ونظرت بصمت يملؤه الصراخ إلى محمود، وبادلني محمود النظر كما لو كان يريد أن يقول لي لقد أخبرتك يا أحمق.!

- قلت له وقد اتسعت مقلتي عيني: من تقصد بزوجة ديفيد؟

- إن اسمها مايا كما سمعتهم ينادون عليها.

فأصابني ذهول وتجمد تفكيري، كما لو كان ذلك الكلام الذي يقوله راشد ليس عني وعن مايا، هل خدعتني بتلك الطريقة، هل كانت كاذبة إلى ذلك الحد!، كيف كنت أحمقاً بتلك الطريقة!.

فأقدم محمود على أن يقول ولكن يا راشد...

قاطعه راشد وقال: أعلم أنه ليس خائن، لولا أنهم قد اخطتفوني قبل أن تتكوّن تلك المجموعة هنا لكنت قد جزمت بخيانته.

ولكنهم كانوا يعتقدون أن تلك المجموعة قد كُونت بالفعل، وكانوا يريدون معرفة معلومات عن طريق سالم بعد أن تجذبه تلك الساقطة التي

تدعى مايا، كما أنهم يعلمون قدر سالم وأبوه في القرية ويريدون أن يتحكموا بتلك النقطة أيضاً عن طريقه.

وعلى ما سمعت منهم أعتقد أنها كانت ستهرب معه فترة، حتى تعرف منه ما تريد ثم تقتله بالنهاية، لولا أن تُوفي والده تقريباً وانقطع عن الذهاب هنالك.

تنهد ببطئ ثم أردف: لا تقلقوا لا أحد يعرف أنني سمعت ذلك، فلقد كنت أسترق السمع، وأحاول معظم الوقت أن لا أبين أني بحالة جيدة.

لم أستطع أن أنبس ببنت شفة وأنا أسمع ذلك الكلام، وأتذوق طعم المرار والعلقم بفمي، وأشعر بالغصة في قلبي..

هل كنت مغفلاً إلى تلك الدرجة عندما ظننت أن الثعابين قد تربى بينهم فتاة تمتلك قلب ويمكنها أن تحب!.

- قال محمود وهو يحاول تغير الموضوع حينما نظر إلى وجهي المكتضب: وكيف استطاعوا أن يصلوا إليك يا راشد؟

- فوثبت واقفاً وقلت بصوت متحشرج: آسف عليّ الذهاب الآن، ونظرتُ لراشد وأضفت الحمدلله أنك بخير يا أخي..

*****

- مسكين سالم قلت محدثاً لراشد.

- نظر لي بإستغراب وقال: ماذا تعني يا محمود، كيف يكون مسكين ذلك الذي يعشق من هؤلاء ويحب فتاة مثل تلك أفقد عقله أم ماذا.!

– لا يا راشد لم يفقد عقله ولم يتهاون في حب فلسطين قيد أنمله، إن سالم صاحبي مذ كنا أطفال وأنا أثق به تماماً، كما أنه أخبرني بأمر تلك الفتاة من بادئ الأمر وأطلعني على كل شيء، ولا تنسى أنه من أنقذك في النهاية، وأنه من أذكى وأقوى الشباب في القرية.

هو فقط سار خلف قلبه المجنون ثم صدم بالنهاية، على الرغم أني أخبرته ولكنه كان على أمل أن يقنعها تلك القذرة الكاذبة.

– خيم الصمت على راشد ثم قال: لعله كذلك، على الرغم من امتعاضي وغضبي من فعله إلا أنني أشعر أنه شاب طيب.

– قلت له بلهجة فضولية: والآن احكي لي كيف خطفوك وماذا أرادوا منك، وما كل سبب تلك الجروح والعلامات بجسمك.

– بدأ يسرد متأثراً: مر على الأمر أكثر من شهرين تقريباً يا محمود، كنت تاركاً الشباب وفي طريقي إلى القرية حين فوجئت بالكثير من هؤلاء الملاعين يحيطون بي والأسلحة موجهه نحوي، حاولت أن أخرج مسدسي من جيبي لكنني لم أستطع مقاومتهم جميعاً.

ثم تقدم نحوي أحدهم وضربني بقاعدة البندقية ففقدت وعيي، وأخذوني بعد ذلك إلى بيت كبيرهم نوعام فهو أقرب منزل للقرية.

كانت تحركاتي لا يعلمونها، ولا يعرفون عنها شيئاً، فكنت أختفي لفترة ثم أعود، آتي للقرية من طرق متعددة، لأني علمت أنني قد أكون مستهدفاً أو لأن أغلب القادة على الأرجح يكونون كذلك.

كان ذلك الأمر محيراً لي تماماً، وأدركت أن هناك جاسوساً بيننا وهو الذي أدلى بتلك المعلومات إليهم، وجعلهم يتمكنون مني.

احتد نظره وساد على صوته نبرة غيظ ثم أردف: جربوا معي كل طرقهم القذرة حتى يحصلوا على المعلومات التي يريدونها.

بدأوا بالضرب حتى فقدان الوعي، وتعليقي عارياً في غرفة مظلمة ويأتي أحدهم على وجهي بمصباح ويوقظني ويحاول استجوابي، ثم يركلني بالنهاية ويتركني.

وبعد ذلك حاولوا أن يضغطوا علي نفسياً، فوضعوني في غرفة ضيقة كالقبر لا يمكنني بها التنفس إلا بصعوبة، ويتلون عليّ الأسئلة من الخارج، ثم بالنهاية ألقوني بقبوٍ أسفل المنزل وقيدوا يداي بالجدار.

لقد عانيت كثيراً يا أخي.

- سألته: وماذا كانوا يريدون منك تحديداً يا راشد ليفعلوا كل هذا؟

- فأجابني بقوة تلك المرة: إنهم ضعفاء ودخلاء يا محمود يعلمون تماماً أنه مهما بلغت قوتهم المادية وعددهم، فسيظلون غرباء وسارقون.

كانوا يرتعبون منا ويريدون أن يعرفوا ماذا نخطط؟ وماذا ننوي فعله؟!، وبعض المعلومات عن عمليات قد أديت سابقاً رداً على ظلمهم وافتراءهم اللا معقول.

- وكيف هربت من ذلك الجحيم يا أخي؟

- كانوا يحتجزونني بقبو متسخ تحت المنزل كما أخبرتك، كان بابه حديدي صغير محفوف بالحشرات والجرذان وكنت مربوط اليدين ملقى

بجانب الحائط، وكانوا يتناوبون على إطعامي لقيمات بسيطة، فهم يريدونني حياً على أمل أن يستجوبونني وأجيبهم أو كورقة رابحة يستعملونها في أي أمرٍ يواجههم بعد ذلك.

في الحائط الذي كنت أستند عليه كان هناك حجر بارزاً، مكثت أيام طويلة أحاول أن أذيب الحبل الذي قيدت يدي به باستخدامه، وبعد فترة استطعت ذلك والحمد لله!.

فانتظرت دخول ذلك الكلب الذي يدعي ديفيد وادّعيت أني منهك، وضع الطعام بجواري وركلني وألقي سبة بذيئة، وأدار ظهره. فهرعت نحوه ممسكاً بوعاء الطعام وضربته على مؤخرة رأسه فسقط على الأرض.

ثم انطلقت بهدوء ولم يلتفت إليّ أحد، كانوا مشغولين بشيء ما داخل غرفة المكتب أعتقد، والحمد لله لم يوجد أي حرس بفناء البيت ذلك الوقت، فركضت للخارج وخارت قواي عندما وجدني سالم.

- نظرت له وقلت: أنت بطل يا راشد لا يحزنك مصابك منهم، والله لن يضيع عملك أبداً، وسيُرد إلينا وطننا إن شاء الله، والحمد لله أنك بخير وبيننا الآن، ثم ربتُ على كتفه وتركته يرتاح.

*****

خرجتُ من البيت القديم وقد خيّم الصمت والحيرة على نفسي العليلة، ولم أكن منتبهاً لأي شيء حولي حتى مناداة بعض الشباب عليّ لم أعرها انتباهاً وانطلقت هائماً، ضائعاً وضعيفاً.

لا أعلم إلى أين تسير بي قدماي وإلى أي السبل ستأخذني، لكنني سرت وبداخلي بركان من الحزن والغضب ولا أعلم متى سينفجر.

وجدت نفسي بالنهاية أجثو على ركبتي عند قبر أبي رحمه الله وأجهشت بالبكاء.

بكيت كما لم أفعل سابقاً، كطفل لا يكف عن النحيب، ولم أكن أعرف لماذا أبكي بتلك الطريقة أحزناً على مشاعري،! أم على ثقتي بتلك السافلة، أم على شعوري القاتل بالخيانة لمجرد مقابلتي إياها وقولي لها أحبك!.

أم لعلي لم أستمع لقول أحد وظللت موقناً أنه يمكنني أن أمشي على المحيط بغير أن أسقط فيه، وفجأة وجدت نفسي أغرق بأعماقه.

حتى عبدالهادي ذلك المجذوب، طالما حاول معي ولكنني لم أنتبه إليه.

ولم أجد من كل ذلك الألم ملجأً إلا قبر الحاج عبدالقادر أحتضنه، وأبكي جواره، وأحكي له ما يخنقني ويضيق به صدري، علّ ذلك يشفيني من ألمي قليلاً.

- مكثت جواره حتى حل المساء، ثم وجدت محمود مقبلاً عليّ وأنا جالس على الأرض ويقول: كنت أعلم أني سأجدك هنا.

ثم مد يده لي وأضاف: هيا دعنا نسير قليلاً..

أخذ بيدي ثم وقفت وسرت معه صامتاً، لا أتفوه بأي كلمة فبادر هو بالحديث قائلا: لن أخبرك بأن تلك كانت تجربة سيئة، وأن ذلك كان خطأ وتلك الأمور التي أنت بالفعل تعرفها.

ولكن يا صاحبي ما سأقوله لك أنني أعرفك وأعرف كم أنت قوي وقادر على التخلص من كل تلك المشاعر السلبية، والعودة أقوى مما فات كثيراً وأثق بذلك كل الثقة.

لذا فأنا أقول لك إننا بحاجة إليك يا سالم، بحاجة إلى ذكائك وقوتك حتى تنكشف تلك الغمة عن بلدنا الحبيب، وتنتقم من هؤلاء الأوغاد.

كنت هادئاً، أستمع لكلامه ولا أجيب.

ثم قال لي: ألن تذهب للمنزل إلى الآن؟!.

- نعم فأنا أحتاج أن أغير ملابسي وأستحم.

- قال مداعبا: هذا ظاهر على منظرك المزري، هيا اذهب الآن وارتاح وأثق أنك ستتعافى سريعاً..

- ابتسمت، إن شاء الله يا محمود.

- أثق بك يا سالم، قالها قبل أن نفترق..

*****

كنت منهمكاً بالعمل في المحل، وأتحدث مع العم عامر عن تغير أماكن بعض البضائع وأتبادل الضحك أنا وعلي، وكنت أتعافى فعلاً من سُم تلك الأفعى وتتحسن الأمور بمرور الأيام.

حتى دخلت مايا فجأة متشحة بوشاحها الذي أهديتها إياه فحمدت الله أنني قد أخفيته عن علي سابقاً، وبيدها ورقة تحاول إخفاءها وبالطبع علي لا يعرف أي شيء عنها فتعامل معها على أنها زبونة عادية.

وشعرت بأن العم عامر يحاول أن يسترق النظر إليّ، ليرى ما هي ردة فعلي.

فتحججت بأن هناك بعض الأشياء قد نقصت من المحل، وأني سأذهب لآتي بها وخرجت مسرعاً إلى المخزن بجوار المحل.

قضت حاجتها، وساعدها على ذلك أخي.

ثم خرجت هى الأخرى ونظرت إليّ نظرة درامية حزينة كممثلة محترفة، وألقت بالورقة من يدها وانطلقت.

بعدما رحلت دعوت أن يكون أحداً لم يرها، وخرجتُ مسرعاً ممسكاً بالورقة قبل أن يراها أحد.

فتحتها وأنا في أفكر فيما تريده تلك اللعينة، وما الذي يخططون له تلك المرة.

عزيزي سالم..

لقد غبت عليّ كثيراً واشتقت إليك إلى أبعد الحدود، لذا قررت أن أخرج رغم اعتراض أبي وأمي بحجة أنني مللت، وأريد شراء أي شيء من السوق ورؤية الناس.

هناك الكثير لأخبرك به.

سأنتظرك يوم الخميس بذات المكان.

محبوبتك مايا..

قبضت يدي على الورقة ولا زلت أفكر فيما يريدونه الآن، لعلها ستخبرني أنها ستهرب معي.. لا أعلم.

- خرج العم عامر ينظر إليّ في شك، ويقول: لماذا تأخرت يا سالم؟

- أخفيت الورقة حتى أتخلص منها في وقت لاحق وأجبته: قادم يا عم عامر حالاً.

تذكرت كلام محمود، أن راشد أخبره أن هناك جاسوساً بيننا..

أطرقت برأسي مفكراً.

أعتقد أنني أمتلك فكرة..

*****

انتظرت حتى انتهي اليوم وفكرت ملياً بتلك الفكرة التي خطرت ببالي، ثم ذهبت إلى محمود مسرعاً.

حيّيت الشباب، وطلبت منه أن نجلس أنا وهو وراشد فقط وحدنا، لأن هناك أمر جلل أريدهم به.

أخبرني أن راشد ذهب إلى أهله، وأنه سيعود بعد ساعة.

انتظرته بشغف حتى أتى بعد العشاء تقريباً، واجتمعت أنا وهو ومحمود في إحدى الغرف وحدنا.

- جلس راشد على الكرسي ووضع يده على المنضدة وقال: خير يا سالم، أخبرني محمود أن هناك أمراً هامًا تريدني فيه.

- طبعاً هام جداً، إن تلك العلاقة التي كدتُ أن أكون خائناً بسببها، يبدو أنها ستجعلني بطلاً الآن.

أخرجت الورقة من جيبي ومررتها لمحمود طالباً منه قرائتها، فتلقاها محمود وعَلّق بعد أن قرأها بصوت مسموع قائلاً: ألم تهدء بعد تلك الملعونة..

- بالعكس لقد أهدتنا هدية لا يمكننا رفضها.

- فقال راشد وقد عقد حاجبيه كيف ذلك؟

- فأجبته وأنا أحرك يدي محاولاً جذب انتباههم، أخبرني محمود أن بيننا خائن.

- نعم وهو الذي سلم راشد لهم قبل ذلك.

- اذاً سأكشف لكم عنه عن طريقها، والآن أريدك أن تخبرني يا راشد من تحديداً الذي كان يعلم تحركاتك، فعد لي راشد ثلاثة.

خالد، حسن، وإبراهيم أعتقد أنهم كانوا أقرب ثلاثة مني. ثم أضاف لا يمكنني أن أشك في أي أحد بهم إنهم أخوتي.

- فقاطعة محمود: سنضع الجميع في شك يا راشد حتى نعلم، أكمل يا سالم.

- حسناً، سنخبر كل واحد منهم بشيء مختلفاً وبعيداً عن الآخر ويجب أن تكون كل تلك الأشياء متعلقة بعلاقتي بمايا، وسأرى أنا أثر ذلك على مايا حينما أقابلها ومن خلال ذلك سنعرف من منهم الخائن.

- فقال راشد متعجباً: ولكن لا أحد يعرف عن علاقتك بمايا، فأنا لم أخبر أحد بذلك.

- ولكن الخائن حتماً يعرف، وهم يعتقدون أنك لا تعرف شيئاً لأنك تقول أنك كنت تسترق السمع، لذا فبالنسبة إليهم لازلت العاشق الولهان،

حتى ولو كنت أشترك مع الشباب في التدريبات وما إلى ذلك، فهى تعلم عشقي لبلدي ولن يكون ذلك غريباً عليهم لو عرفوه من الجاسوس، بل سيكون دافع أكبر للتقرب مني.

لذا فسنُقسم أنفسنا لثلاثة على عدد من يعرفون تحركاتك، ولكنني لا يمكن أن أشترك في ذلك الأمر، لأنني لو صادف تحدثت مع الخائن سيدرك أننا نتلاعب به يجب أن يكون الأمر طبيعياً كما لو كان حديث جارٍ سُمع عن راشد.

أنت مثلاً يا راشد من هو أقربهم إليك؟

- أظن أن أقربهم إليّ هو خالد.

حسناً وأنت يا محمود.

- إبراهيم.

إذاً وسنجعل مينا يتحدث إلى حسن.

أكملت بنبرة قيادية حادة: سيخبر راشد خالد أن هناك شاباً أخبره أنه يقابل ابنة نوعام وهي تعشقه، ولكنه يشعر أنها تخدعه لذا قرر أنه سيقتلها في المرة المقبلة التي يراها بها، أو سيخطفها ويأتي بها إلينا.

ويخبر مينا حسن، أنه سمع من راشد أن هناك شاباً يعشق ابنة نوعام ويقابلها، وأنه سيهرب معها قريباً.

أما محمود فسيخبر إبراهيم أن شاباً أحب ابنة نوعام ولكنه الآن ينوي لها نية خبيثة، لا يعلمها.

- فقال محمود: ولكنني أقلق عليك من تلك المخاطرة يا سالم، فأنا لا أعرف ما ستكون ردة فعلهم تجاهك إن شعروا أنهم بخطر.

- لا تخف يا أخي إنني بالنسبة إليهم ورقة رابحة، خاصةً بعد رحيل راشد من بين يديهم، فإنهم سيحاولون الحفاظ عليّ.

- قال راشد وهو محتار: على الرغم من أنني لا أتصور أن يخونني أحد منهم، إلا أنك على حقٍ يا محمود، يبدو أنه لا يوجد أحد غيرهم كان يعرف ذلك عني، ولكن كيف ستعرف من هو الخائن بعد أن نفعل ذلك يا سالم؟.

- اترك لي ما تبقى.

ثم أكمل وهو ينظر إليّ فرِحاً: أحسنت يا سالم، كما أخبرني عنك محمود تماماً..

- فرددت: لقد كانت على عيني غشاوة وأزلتها يا راشد، وأقسم لك أنني سألقن هؤلاء الملاعين درساً لن ينسوه طيلة حياتهم.

- بارك الله فيك، هذا هو أخي مرحباً بعودتك، قالها محمود وهو يضمني..

- قلت لهم قبل أن نخرج: بقي شيء أخير يجب أن لا نغفل عنه أن نخبر كل واحد منهم أن ذلك الأمر غاية في السرية، وأن عليه أن لا يخبر أحد، لنشعره بأن الأمر أكثر أهمية.

- فقال راشد: اتفقنا، توكلنا على الله.

طلبت من محمود أن نتحدث قليلاً سوياً، فلبى ندائي وخرجنا إلى حديقة البيت الصغيرة، وجلسنا على الأرض نتنسم نسيم الليل ونستمتع بالهدوء.

- خيراً يا سالم.

- أحمل لك خبراً ساراً يا محمود.

- خيراً إن شاء الله، قال محمود مستبشراً.

- نويت أن أتزوج ريم.

هلل وفرح وهنأني وكاد أن يفضح سري، فطلبت منه أن يهدأ لأني سأخبرها بيني وبينها وسأطلب منها إخفاء ذلك.

- فتعجب محمود، قائلاً لماذا.؟

- يا أخي لا نريد أن يعرف أحداً بذلك الأمر، حتى ننتهي من أمر ذلك الخائن الذي بيننا.

- فنظر إليّ كما لو كان تنبه، ثم قال: صدقت.

- والآن أريدك أن ترتب موعد لأقابل ريم بالبيت، لأني سأحكي لها كل شيء.

- أواثق من ذلك يا سالم؟

- بالطبع يا أخي فلقد كنت أعمي ومخطأً بشأنها، وتحملت هي الكثير لأجلي وكنت أحمقاً ولم أعر اللؤلؤة التي بجواري انتباهًا، ونظرتُ إلى كلبة طليقة لا تستحق.

فعلى الأقل من حقها أن تعرف كل شيء، حتى ما سأقدم على فعله سأخبرها به.

- فرد بصوت سعيد: حسناً يا أخي كما تريد، ستفرح حور لذلك أشد الفرح.

- قبض على كتفي قائلاً: مبارك لك يا أخي، ثم احتضنني بقوة..

*****

عصر يوم الثلاثاء مر بي محمود في المحل وأخبرني أن أتجهز، فقد اتفقت حور مع ريم أن تأتي لها اليوم مساءً، ولم تخبرها لماذا كما طلبت.

فطلبت منه أن يذهب وسأنهي العمل أنا وألحق به.

وبالمساء، ارتديت قميص زيتي اللون وبنطالاً أزرقًا وأضفت بعض العطور، وذهبت إلى محمود، جلست معه قليلاً حتى قدمت ريم، وجلست ببهو البيت.

ثم قامت حور من مجلسها وذهبت لمحمود وغمزت له فخرج وتبعها، ونظر إليّ مبستماً.

خرجت من الشرفة وجلستُ على كرسياً في مقابلتها، كانت تجلس وخديها يكتظان بالاحمرار من كثرة الخجل ولكنه خجل حقيقي ليس ذلك الذي عهدته من تلك الشمطاء.

- قلت لها بهدوء: أريد أن أعتذر إليك عما بدر مني في تلك الفترة من تجاهل وحماقة، وعن كم تلك الألآم والأوجاع التي سببتها لك.

وأريد أن أعترف لك أيضاً بكل ما كان يلهيني عن الألتفات إلى حبك النقي، الذي علمت أنه لن يكون له مثيل مهما درت وطفت البلاد والأوطان.

- قالت بصوت متقطع: لست بحاجة للاعتذار يا سالم، كنت أثق أن تلك اللحظة ستأتي يوما ما، وطالما دعوت الله وتمنيتها وأيقنت تماماً أننا سنجتمع.

- فرددت متأثراً: أتعلمين أن الاعتذار هو أقل ما يمكنني أن أقدّم إليك يا ريم، وسأحكي لك الآن كل شيء لأنك تستحقين معرفته.

وبعد مرور ما يقارب الساعة كنت قد انتهيت من سرد كل ما مر مع مايا، وكل تلك القصص التي مرت والآتية أيضاً.

كنت قد شعرت وأنا أحكي إليها أنها تأثرت وتألمت لحديثي لأنني فعلت كل ذلك، وهى على الجانب الآخر تنتظرني بكل وفاءٍ وحب، لكنها لم تتحدث..

فأخرجت من جيبي خاتم عتيق رأسه تشكلت بزهرة، وقدمته إليها وأنا أقول: أتمني أن تسامحيني يا ريم، وأن تقبلي زواجي منك.

لو كانت أي فتاة بمكان ريم لكانت تركتني ورحلت، وما كانت لتنظر في وجهي مرة ثانية، لكنها فاجئتني بكلماتها..

- قالت: أتعلم يا سالم أنني أحببتك، لطالما فعلت ذلك، مذ كنا أطفالا وأنا أنتظر تلك اللحظة التي تتقدم لطلبي، وحاربت لأجل ذلك كثيراً.

وعلى الرغم من أن كلامك ذلك أثّر بي وشعرت بالصدمة، إلا أنني أبعدت مشاعري السلبية وتذكرت أنك سالم الذي أحببته، كما أنك لم تخدعني وأخبرتني بكل شيء..

لذا فأنا أقبل يا سالم..

فأشرت إلى محمود بسعادة حتى يأتي، فجاء مسرعاً هو وحور ولاحظا علينا الرضا، فهمّت حور أن تزرغد ولكن محمود أوقفها.

فتعجبت لذلك..

– فقلت لها: ليس الآن يا حور، بقيت هناك خطوة نفعلها وبعد ذلك نفرح جميعاً.

– فقال محمود بصوت سعيد: قريباً إن شاء الله.

فوثبت ريم واقفة، وأخذت حور وانطلقوا نحو إحدى الغرف.

– وقال لي: محمود وهو يقبلني ويحضنني مبارك عليك يا أخي..

– رددت بسعادة: بارك الله فيك يا صاحبي، سأرحل الآن يا محمود حتى أبّشر أشجان بذلك الخبر، وأعلمها أن عليها أن تبقيه سراً تلك الفترة..

*****

كنت قد طلبت سلاح من راشد من قبل، ووضعته في خصري وأسدلت عليه قميصي حتى أخفيه. فأنا لا أعلم من هو الخائن ولا أعرف تحديداً كيف ستكون ردة فعلهم، ولكن يجب عليّ أن أتجهز لأي ردة فعل تصدر عنهم.

ذهبت للشجرة العجوز قبل أن تأتي. ووقفت عندها أحاورها وأقول: كما شهدتي خداعي وبلاهتي أيتها الشجرة. ستشهدين على ما سأفعله بهم، أعدك..

قدمت مايا نحوي تبتسم ابتسامة مخادعة، مرتدية فستان أزرق، وتتقدم نحوي بكل شوق كاذب وحب غير موجود.

وقفت أمامها مبتسماً، أنظر إليها ولا أتكلم.

– فقالت لي وهي تشيح بنظرها مبتعدة عني مدعيةً الخجل: لماذا تنظر إليّ هكذا، ولا تتحدث.

- فرددت عليها مستجمعاً ذلك المشهد الذي تدربت على فعله عندما أقابلها، التقط يدها وقبضت عليها قائلاً: بكل مرة أقابلك بها أشعر أنني أقابلك لأول مرة بنفس الجمال والرونق والرائحة الجميلة التي تفوح منك.

- فابتسمت ولم ترد ثم جلست وقالت لي: هيا أريد أن أخبرك الكثير والكثير.

ولكن أولاً أريد أن أعزيك في فقيدك الحاج عبد القادر، فلقد سمعت ما حدث له ولكنني لم أستطع القدوم كما تعلم.

للحظة كادت أن تفر من عيني دمعة وأنهار، ولا أستطيع أن أكمل ذلك المشهد التمثيلي حينما ذكرت أبي، فأشحت بوجهي وتمالكت نفسي وجففت دموعي، وقلت لها: شكراً أعرف ذلك يا مايا.

- هيا أريد أن أسمعك فقلد اشتقت إلى حديثك.

مكثت تشكي وتحكي الكثير عن معاناتها الكاذبة وتتحدث كممثلة مخضرمة عن ديفيد وعن مضايقته التي تحاول صدّها من حين لآخر، وعن إلحاح أمها وأبيها عليها، وجلوسها منفردة بغرفتها ترسم وتتخيل، وأنا أسايرها وأرسم على وجهي علامات الانتباه والاهتمام إلى ما تقول.

لأكن صريحاً على الرغم من أن تلك المرأة (لن أقل الفتاة الآن)!

كانت كاذبة وقذرة لأبعد الحدود، إلا أنها كانت ممثلة جيدة جداً، أعتقد أنها لو كانت وُلدت لإحدى العائلات الأمريكية لأصبحت بطلة من بطلات هوليود الآن.

- وبعدما توقفت عن الحديث نظرت صوب عينيها مباشرة نظرة رومانسية متقنة ثم قلت لها: وهل فكرت يا مايا بما حدثتك عنه سابقاً؟

- أطرقت تفكر كما لو كانت لم تُعد مسبقاً لذلك السؤال، ولم ترتب الإجابة هى والعصابة التي تسكن معها، ثم قالت بعدما نظرت إليّ: نعم فكرت.

فادعيت التوتر واللهفة منتظراً ردها.

- فأردفت: لقد صدقتك يا سالم ووثقت بك، وآمنت بقضيتك ولكنني فكرت ملياً في عرضك هذا وقررت أن..

سكتت كما لو كانت تشوقني، وأنا أدعي أني لا أتحمل انتظار كلماتها ثم قالت: أن أبقى بجانبك للأبد..

قالتها وهي مبتسمة وتبادلني نفس النظرة الرومانسية، قلت لنفسي حتى وأنت تحاولين خداعي تقولين أنني صادق وأن تلك هى أرضنا وأنكم دخلاء علينا وسارقين، وتعترفين بكل ما قلته وتؤيدينه، فعلاً إن تلك الجزئية الوحيدة التي كانت حقيقة بكل حديثك.

فاقتربت منها كما لو كان الزمن قد توقف حينما أخبرتني، ثم احتضنتها ولثمت رقبتها، وقبّلتها بحرارة، وعندما كانت يداي تعتصرها بين ذراعي تمنيت أن تكون حول عنقها ولكنني تحمّلت احتضانها مظهراً الاستمتاع والحب..

وبينما أنفصل عنها حتى رُفع جزء من ثوبها تحديداً عن قدمها اليسري فانكشف أعلى قدمها قليلاً. فلاحظت خنجراً يعلو حذائها الأسود، بينما كانت هيا منغمسة في قبلاتي كعاهرة مجيدة لتلك الأفعال.

أبعدت عيني سريعاً وقبّلتها مرة أخرى حتى أُلهيها عن أن تلحظ أنني رأيت ذلك الخنجر، فأنا أحتاج أن تعرف أنني أصدّقها وأثق بها حتى الثمالة.

كنا في تلك الأحيان انتهينا من شهر إبريل وبدأنا بذلك الشهر المفصلي شهر مايو.

– بعدما انتهينا من ذلك المشهد المبتذل، أكملت نظري إليها بكل حب خادع وقلت لها: سأحتاج إلى أن أرتب مكاناً يجمعنا وأهيء الأمر لذلك لذا فلتعطيني أسبوعاً، ولتجمعي كل حاجياتك وأمتعتك وتنتظريني هنا بموعد لقاءنا القادم.

– قالت لي وهي فرحة: حسناً يا سالم، الآن سنبدأ حياتنا كما خططنا وكما رسمت دوماً يا حبيبي.

– فأكملت ذلك المشهد باحتراف قائلاً: بل وأكثر يا حبيبتي، وأردفت بالمناسبة ألم أخبرك عن قصة الشجرة العجوز؟!

– فقالت متعجبة: لا بل إني ظننت أنك قد اتخذتها حُجة سابقاً لتحدثني.

– كانت كذلك بالفعل.

ولكنني أيضاً سألت عنها عمتي تريز وأخبرتني أن لها قصة وأن أصحابها قد عانوا كثيراً..

أما عن تلك الشجرة، فلم تكن عجوزاً حينما كان يرعاها أهلها، بل كانت خضراء، مورقة، ويكأنها تستمد ربيعها منهم، إنما توقفت عن الإثمار وتساقطت أوراقها، حينما جلب سارقوها الخريف معهم، واعتقدوا بكل سذاجة أن الربيع لن يأتي ثانية.

- فقالت: أتقصد أنها كانت ملكاً للبعض ثم سُرقت منهم، ثم أكملت بلهفة وماذا حدث بعد ذلك؟

- نعم بالضبط ذلك ما أقصد، ثم كبر الصراع وازداد بين الطرفين، وطال ذلك الصراع لسنين وسنين حتى أنه ضحى أصحاب الحق بكثير من الأرواح، ولكن انتهي المطاف في النهاية إلى أن طُردت تلك العائلة الجائرة من القرية في ذلٍ ومهانة، وبقى أصحاب الشجرة وبقيت الشجرة أيضاً وإن كانت عجوزاً كدليلٍ على ما حدث سابقاً.

نظرت إلي وبدا عليها أنها فهمت ما أردت قوله ولم تتحدث..

ثم قمت وأوقفتها ممسكاً بيدها قائلاً: اعذريني يا مايا، فعليّ أن أذهب الآن، فكما تعلمين منذ وفاة أبي وزاد حمل العمل عليّ بعض الشيء.

فأومأت مواقفة وهي ترسم ابتسامة ظاهرها الأمل، باطنها الخداع.

ثم قبّلتني وذهبت..

فبصقت مباشرة بعدما أدارت ظهرها، وأطلقت سبة سيئة.

وانطلقت في طريقي مباشرة إلى راشد ومحمود، وقد علمت على ما يبدو من هو الخائن..

*****

– دخل مينا عليّ وأنا جالس في بيت التجمع مع الشباب قائلاً: مرحباً يا راشد.

– أهلاً يا مينا تفضل.

– ألم تر محمود؟.

– لا لم يأت، حسبته مريضًا أو ما شابه، وكنت أنوي زيارته بعد أن ننهي اليوم هنا.

– وماذا عن سالم.!

– فأجبته: لم يأت بعد هو الآخر وطلبتُ منه أن يجلس ويهدأ، بعدما شعرت أن القلق قد تملك منه وحاولت أن أطمئنه أن كل شيء سيكون بخير إن شاء الله.

في تلك الأحيان دخل علينا سالم مستبشراً، وأشار إلى الغرفة بيده لنجتمع وحدنا بعيداً عن الأنظار.

فهمست مينا وهو يدخن غاليونة، ألم أقل لك لا تقلق.

اجتمعنا حول المنضدة الدائرية، بعدما اطمئن مينا على سالم وأخبره سالم أن كل شيء بخير.

– قال سالم بحماس: يشوبه مسحة من الغيظ، علمت من هو الخائن يا راشد..

كان الفضول يتناثر من وجوهنا أنا ومينا ونحن نستمع إليه قبل أن يقول إنه إبراهيم.

نظر إليّ مينا وقد عقد ما بين حاجبيه ونظرت إليه بتعجب أنا أيضاً، – ثم قلت له: وكيف علمت تحديداً أنه إبراهيم يا سالم..

– أنا واثق يا راشد، لقد وضعت افتراضات لكل احتمال منهم، ثم رأيتها تربط خنجراً حول قدمها وتخفية تحت فستانها.

– قال مينا: وأين الدليل في ذلك على أن إبراهيم هو الجاسوس!

فذكرنا بما كان على محمود أن يخبر إبراهيم أنه ينوي نية سيئة لها بدون توضيح ما هي تلك النية.

– قلت: حسنا أين المبرر إذاً أنه هو الفاعل.

– فرد سالم بهدوء: فكر معي فيما كانت بقية الأشياء التي قلناها، كان منها أنني أنوي قتلها أو اختطافها، وأنت تعلم كم أنهم جبناء ويخشوننا بجنون فلو كان خالد هو الفاعل لم تكن لتأتي أبداً.

ولو كان حسن هو الفاعل لما كانت لتأتي بخنجر لأنه لابد أنه أخبرها، أنني سأهرب معها لا محالة فلماذا ستخاف مني.

ولكنها لم تفعل هذا ولا ذاك، بل أتت مصطحبة معها خنجراً ليأمنها..

لحظة من الصمت يصحبها تفكير أصابت الجميع، ثم قطعها سالم وهو ينظر في عيني بثقة ويقول: أنا متأكد تمام مما أقول لك يا راشد، صدقوني أن إبراهيم هو الفاعل..

– قلت بحيرة: إن الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير والتريث، لا يمكننا الاندفاع بتلك الطريقة ونلقي اتهامات لا نملك عليها دليل بيّن يا سالم.

كان سالم يكتظ غيظا من حديثي كما لو كان قد قبض على المجرم، وأنا أحاول تهريبه بعدما عرّض نفسه للخطر في سبيل ذلك.

- فلاحظ مينا سخط سالم، وقال: راشد على صواب يا أخي نحن نثق بك ولكننا نحتاج إلى دليل أكثر قيمة ونحن نقدر ما فعلته ولكن علينا أن نهدأ ونفكر قليلاً.

- ثم سألته: طمأني يا سالم هل لاحظت أنك رأيت ذلك الخنجر؟

- فقال باقتضاب: لا لم تفعل.

- فحمدت الله، وبعدها قال مينا لسالم في هدوء: لقد أبليت حسناً يا صاحبي، وسنجد الجاسوس لا محالة لا تقلق..

*****

أفقت من نومي على صوت حور تبكي في الخارج مع أشجان تقريباً فخرجت متثاقلاً ومتحاملاً على نفسي، أحاول أن أستفيق بعض الشيء..

- ماذا حدث يا حور.؟

- فردت بعيون باكية: لم يأت محمود من البارحة مذ خرج للعمل وهو ليس معتاد على ذلك يا سالم، لم يبت خارجاً ولو لمرة واحدة منذ زواجنا، فأتيت إليك ظانة أنه قد يكون عندك أو تعرف أنت مكانه.

- أصابني العجب لوهلة وحاولت إخفاءه بالطبع حتى لا تقلق ثم قلت: أنا فعلاً لم أره منذ يومين تقريباً، ولكن على أية حال سأسأل عنه الشباب، قد يكون سافر في أمر هام أو ما شابه وسأوافيك بكل ما أعرف. لا داعي للقلق.

تركتها وهي تجفف دموعها وتربت أشجان على ظهرها محاولة أن تطمئنها. وأقول لنفسي إنها ليست عادة محمود فعلاً، وأدعو أن يكون خيراً.

صليت الجمعة بالمسجد ثم خرجت متجهاً إلى البيت القديم، وسألت الشباب فرداً فرداً هل رأى أحدهم محمود أو يعلم شيئًا عنه ولم يعطني أحد إجابة شافية كلهم يتحدثون أن آخر مرة رأوه فيها منذ يوم أو يومين.

ساورني الشك وشعرت بأن أمر سيئًا قد حدث، فقابلني مينا فسألته هو أيضاً.

- فأخبرني أنه كان يسأل عنه راشد البارحة، ماذا هناك يا سالم ألم يظهر محمود بعد!؟.

- فأجبته هامساً: يبدو أنهم قد فعلوا شيئًا لمحمود يا مينا.

فنفث الدخان من منخاره في صدمة ولم يتفوه بشيء، فقلت له: جِد راشد سأنتظركما في الغرفة.

دخل راشد مرتدياً عباءة سوداء، وجلس مقابلاً لي وبجانبه مينا.

- ثم قال مينا في توتر: هل تعتقد أنهم قتلوه يا سالم؟

- أنا لا أعلم أين هو يا مينا،! أقترح أنه إذا غاب فجأة هكذا دون أن يعلم أحد مكانة فقد يكون أصابه مكروه منهم..

- فقال راشد بعدما وضع يده على الطاولة: أتفق معك يا سالم، ولكنهم لن يقتلوه فمحمود بالنسبة لهم مهم للغاية، فبعد أن أصبح الآن هو الزعيم في تلك القرية وبعض القرى المجاورة بالطبع وشى به الخائن هو أيضاً.

- فأكملت من حيث انتهي راشد: الخائن.. بالضبط ذلك هو ما سنفعله.!

- فرد مينا: نفعل ماذا؟

- فنظرت له وقلت: إن كانوا لم يقتلوه كما قال راشد فإنهم بالطبع اختطفوه ويفعلون معه مثلما حدث مع راشد، حتى يخرجوا منه بأكبر قدر من المعلومات.

وإن كان قد حدث ذلك فإن بالطبع من فعله سيكون الخائن، فتلك هى فرصتنا لننقذ محمود ونعلم الخائن يقيناً كما أردتم.

- فلمعت عينا راشد وقال: يبدو أنك تمتلك خطة مرة أخرى؟

- نعم يا راشد. أردت التأكد سابقاً من حديثي حول إبراهيم، فسنفعل الآن.

- سكتت لحظة ثم قلت هامساً: سنقتحم بيت نوعام، ولكن استمعوا جيداً إلى ما سأقوله..

*****

طرقنا باب المنزل على حور أنا ومينا ففتحت بلهفة، قائلة: تفضلا هل عرفتم أين محمود؟

- فاعتذرت منها، إذ لا يمكننا الدخول ومحمود ليس هنا، ثم قلت لها مبتسماً ابتسامة متماسكة وأنا أحاول إخفاء بعض التوتر والقلق الذي ظهر على وجه مينا: بالطبع يا حور لقد قال لي راشد أنه خرج في مهمة سرية مسافراً

لبعض الوقت، ليأتي لنا ببعض الحاجات التي نتقوى بها في مقاومتنا، إن زوجك بطل لا تقلقي عليه يا حور.

بالمناسبة لقد مررت بريم وأخبرتها بعد أن استأذنت من عمي، أن تأتي وتقيم معك بعض الوقت حتى يرجع محمود إن شاء الله سالماً..

- فقالت باستسلام: حسناً يا محمود أشكرك على اهتمامك.

- سنرحل الآن يا حور ولو أردتي أي شيء تعرفين مكان البيت.

فأومأت بابتسامة خفيفة.

ثم رحلت أنا ومينا، وبعدما أغلقت الباب نظرتُ له وقلت موبخاً: ماذا أصابك كنت ستفضح أمرنا يا مينا..

- اعذرني يا أخي فأنا قلق على محمود للغاية، وأخشى أن يصيبوه بمكروه.

- فوضعت يدي على كتفه وقلت له وأنا أيضاً يا مينا أقسم لك، ولكن علينا أن نصبح أقوى من ذلك، حتى نتمكن من تنفيذ ما اتفقنا عليه..

فهز رأسه موافقاً ثم أكملنا سيرنا.

*****

في صباح اليوم الذي اتفقنا عليه مررت ببيت محمود مرة أخرى، ولكن ليس لأطمئن حور بل مررت لأرى ريم..

- صباح الخير يا حور.

- أهلاً تفضل يا سالم، قالتها بابتسامة متعبة.

- سألتها عن ريم، فقالت: نعم بالداخل ونادت عليها بينما دلفت إلى الصالة وانتظرت قدومها..

- كيف حالك يا سالم، رددت ريم مستبشرة برؤيتي..

أعلم أن بعقلها يدور كثير من الأسئلة عما حدث بيني وبين تلك الشيطانة بالمقابلة السابقة، ولكن هناك أمر أكثر أهمية الآن يجب أن تعرفه. لأني لا أعلم عواقبه ولكنني أريدها أن تعلم، لا أعرف لماذا أريد ذلك فإخباري لها سيقلقها بكل تأكيد ولكنني أردت إخبارها.

فشرعت أحدثها بعدما طلبت منها الجلوس وقلت لها: اسمعي يا ريم، أعلم أنك تريدين أن تسألي عن الكثير بخصوص ما أخبرتك به سابقاً، ولكن هناك أمر أكثر أهمية الآن وأريد أن أخبرك به، إننا نعتقد أن محمود قد خُطف.

فشهقت مرتعدة، واتسعت عيناها..

- فطلبت منها الهدوء وقلت لها: اسمعيني لا أريد أن يعرف أي شخص عن ذلك الأمر نهائياً، وخصوصاً حور فلا نعرف ما سيكون حالها.

- فتماسكت بعض الشيء وأنزلت يديها من على فمها، ثم قالت: وماذا ستفعلون حيال ذلك يا سالم؟

- لا تقلقي لن نترك محمود أبداً يا ريم، حتى ولو أُزهقت أروحنا دونه أما أنت فعليك الآن أن تلزمي البيت مع حور ولا تتركيها وحدها.

- بالطبع ولكني لن أتركك قبل أن تخبرني ماذا نويت فعله تحديداً..

في تلك اللحظات دخلت علينا حور تحمل صينية عليها بعض الكؤوس بها عصير ما ووضعته أمامنا ثم قالت: سأترككم قليلاً وأذهب لأعد الطعام بالمطبخ..

- فردت ريم: حسناً سأتبعك بعد قليل يا حور.

- وبعد أن رحلت حور إلى المطبخ، همست لها: لا يمكنني فعل ذلك يا ريم فلا أريد أن أقلقك.

- لا يا سالم بل سأقلق لو لم تخبرني ماذا ستفعلون، والله لا ترحل حتى أعلم وأطمئن.

- ترددت كثيرا ولكني نهاية لم أجد بداً من إخبارها، فسلمت بذلك وقلت لها: حسناً اسمعي ولكن لا تجزعي ولا تخافي.

- حسناً أكمل..

ثم أردفت بتلك الطريقة الهامسة، سنقتحم بيت نوعام.

- فشهقت مرة أخرى من الصدمة، فقلت لها: ألم أخبرك ألا تجزعي!..

- فقالت: آسفة آسفة.. لن أفعل ذلك ثانية ولكن لماذا بيت نوعام تحديداً.

- لقد خُطف راشد هناك ونشك بأنهم فعلوا ذلك بمحمود أيضاً، فاتفقت أنا وراشد ومينا وشخص شككنا فيه أنه الجاسوس أن نذهب سويا وأعطيناه موعدًا خاطئًا. فإن كان هو الجاسوس أبلغهم بالموعد الخاطئ واستعدوا للاشئ وإن لم يكن فسنذهب على أية حال ونناجزهم قبل أن يعرفوا.

- بدأت ألاحظ علامات التوتر والخوف على قسمات وجهها ثم قالت بعدما أمسكت يدها: ولكنه أمر خطير يا سالم.

- فقلت أحاول بث بعض الطمأنينة إليها: لا تخافي يا ريم سنرجع إن شاء الله سالمين ومعنا محمود، ولكن كما أخبرتك فلتكوني بجانب حور دوماً ولتشدي من أزرها.

- فقالت بقلق: حسناً حفظكم الله يا سالم.

- لمحت بيديها خاتم أمي الذي أهديتها إياه، فقلت لها: أرى أن الخاتم أعجبك، إنه يناسب يديك الجميلة يا ريم.

فأصابها خجل حقيقي، ليس كالمزيف الذي اعتدت عليه من تلك اللعينة.

ثم أكملت: أريد منك شيئاً يا ريم.

- فقالت بحماسة: اطلب يا سالم كل ما تريد.

- فأجبتها.. أن تقسمي أنك سامحتني فلا أعلم ماذا سيحدث في تلك المغامرة، وأخشى أن يكون بقى بداخلك شيئاً تجاهي، على الرغم من أنني موقن أن قلبك هو أنقى وأوفى قلب رأيته بحياتي.

- فقالت: بالله ما بقى ولا كان ولا حتى سيكون بالقلب منك شيء يا سالم..

ثم أردفت وتكاد العبرات أن تسيل من مآقيها كالنهر الجار، ولا تقل ذلك سترجع سالماً معافاً لنتزوج ونعش سوياً طوال حياتنا.

ثم نظرت في عيني بعينها السوداء الباكية وقالت: عدني يا سالم أن ترجع إليّ، لأن ذلك هو الشيء الوحيد الذي لن أسامحك عليه لو فعلته.

فلتعد سالماً يا سالم..

- فربّت علي يديها وارتسمت على شفتاي ابتسامة رضا، وقلت: أعدك يا ريم، والآن لا تبك وادعي لنا ما استطعت.

- لن أتوقف عن الدعاء أبداً يا حبيبي، حتى تعودوا لنا ان شاء الله..

فابتسمت لها مرة أخرى، ثم ناديت على حور حتى أودعها.

- فجاءت تحمل بيدها بعض الخضار وقالت بسخط: لم تشرب مشروبك يا سالم، كنت قد لمحت ما به سابقاً فوجدته فراولة.

- يا حور تعرفنيني منذ سنين ولم تعرفي إلى الآن أن عندي حمى من الفراولة..

ثم ألقيت بعض النكات حتى أخفف من حدة الأمور ثم تبادلنا الضحكات ورحلت، تحت أنظار ريم الخائفة وقلبها الداعي.

*****

بالمساء وقبل أن نذهب في مغامرتنا. مكثت قليلاً بالبيت حتى أُشبع نفسي منه، كما لو كنت خائفاً مما سيحدث وأخشى أن لا آتيه ثانيةً.

وحينما حلّت الساعة التي اتفقنا عليها خرجت بعد أن قبّلت إسراء وسلمت على أشجان وعلي وهم يتأملون في فعلي ذلك ولا يفهمون لماذا أفعل هذا، فأنا بالطبع لم أخبرهم بأي شيء، حتى أن علي قال متعجباً: أأنت بخير يا سالم؟

- كما لم أكن من قبل سأذهب لمينا أقضي معه السهرة وأعود إن شاء الله..

وبالفعل ذهبت لمينا، كنت أريد أن أسلم على خالتي تريز أيضاً، وقبل أن أرحل همست بأذنها لقد فعلت ما أردت وتمنيت يا خالتي، على الرغم أنني لم آتي لأجلس معك كما اتفقنا، ولكنني أدركتُ ما أردتي فريم خطيبتي الآن ولكن لا تخبري أحداً فلم نعلن ذلك بعد..

- فضحكت وهللت واحتضنتني مرة أخرى، قائلة: اللهم بارك يا حبيبي.

فقبلت رأسها ورحلت.

ومضيت في طريقي أنا ومينا واجتمعنا جميعاً كما اتفقنا سابقاً عند الشجرة العجوز.

حينما قررنا أن اجتماعنا سيكون عند تلك الشجرة بالذات، شعرتُ كما لو كانت تلك المهمة بمثابة وئد لما بقى من مشاعري المخدوعة إن كان قد بقي منها شيء، واكتمالاً لشفائي من سحر تلك السافلة.

حضر الجميع بالموعد مينا وأنا وراشد وأما إبراهيم فقد تأخر قليلاً وهو الأمر الذي الذي أزاد شكنا به أكثر وأكثر، ولكن راشد أخبره بتغير الموعد قبل خروجنا بساعة حتى لا يستطيع إيصال أي معلومة إليهم فلعله تأخر لتفاجئه بتغير الموعد.

كان راشد هو القائد لتلك المهمة وقد طلب منا أن نحمل سلاح (مسدس صغير يدفع به كلاً منا عن نفسه)..

– قال راشد بلهجة قيادية تناسبه تحت ضوء القمر الخافت: يا شباب إن مهمتنا الأولى اليوم ليست قتل أحد أو خطف أحد فنحن لسنا أداة للقتل والترهيب، ولن نسلك مسلكهم ذلك إلا لندافع عن أنفسنا، نحن ذوو حق لذا فإن كل ما نريده هو أن نخلّص محمود ونعود به سالماً غانماً إلى أهله.

فهز الجميع رأسهم موافقين.

– أشار إلي مينا قائلاً: هل أحضرت الحصان كما أخبرتك.

– نعم يا راشد.

أردف راشد: حسناً مينا سينتظرنا بالخارج ومعه الحصان كما اتفقنا..

– فرد إبراهيم محاولاً فك الضغط قليلاً، في تلك الحالة ستستطيع أن تدخن غاليونك كما تحب يا مينا..

ولكنه سرعان ما سكت، بعدما لم يلق أحداً اهتماماً بدعابته.

ثم أردف راشد أما أنا وإبراهيم وسالم سندخل سوياً، أنا من اتجاه وسالم وإبراهيم من اتجاة آخر.

– فقال إبراهيم معترضاً: ولكننا لم نتفق على ذلك حينما وضعنا الخطة يا راشد، اتفقنا على أن نذهب ثلاثتنا كل واحد من اتجاه.

– فرد راشد: أعدت النظر بالخطة مرة أخرى يا إبراهيم وأنا أعلم ملامح البيت أما أنت وسالم فلا، لذا فمن الصالح أن تكونا سوياً أما أنا فسأتدبر أمري.

فصمت إبراهيم كما لو كان قد اقتنع..

كانت حُجة مقنعة في رأيي فلقد خشي راشد أن يكون إبراهيم فعلاً هو الجاسوس، ولم يرد أن يتركه منفرداً فلا يعلم أحد ماذا سيفعل، علّه يحاول تنبيههم أو شيئًا من هذا القبيل.

توكلنا علي الله وبدأنا في الذهاب وتركنا مينا ومعه الحصان، وانفصلنا أنا وإبراهيم عن راشد.

كان الاتفاق أن نبحث أنا وإبراهيم من الخارج في الغرف، وراشد سيحاول التسلل لذات المكان الذي سبق وخطفوه فيه أيضاً.

تسلق إبراهيم السور في تريث وأشار لي بأصبعين أي أنه يوجد حارسين بأسلحة، كانت هناك شجرة متفرعة مورقة بجانب السور لحسن الحظ فكانت بمثابة غطاء جيد لنا حتى نهبط للداخل.

أشرت لإبراهيم نحو الحارس الذي باليسار في صمت وذهبت أنا لليمين وبقاعدة المسدس ضربته على رأسه وجررته تحت الشجرة وقيدته وكممت فمه، وجر إبراهيم الحارس الآخر بنفس الطريقة وربطه بجواره.

لا أعلم لماذا شعرت بأن عليّ الوثوق قليلاً في إبراهيم وأنه على ما يبدو أنني قد أكون ظلمته، ولكن لا يمنع ذلك من اتخاذ الحيطة أيضاً، كانت هناك غرفة ضخمة بجانب البيت فأشرت له قائلاً: دعنا نذهب هناك.

أخرج إبراهيم إبرة حادة على ما أظن من جيبه وحاول فتح قفل الغرفة المحكم الغلق، بينما كنت أستطلع أنا باقي البيت..

لمحت عيني غرفة مضيئة، وعلى ما يبدو أن بها بعض الأوراق المتطايرة واللوحات في كل مكان، ولكن الستارة كانت تغطي معظم ملامحها فلم أستبين ما تحويه باقي الغرفة..

– الحمدلله لقد فتحت. قال إبراهيم قبل أن يتجمد صامتاً محملقاً داخلها دون أن يهتز له طرف.

– فنظرت له قائلاً: إبراهيم ماذا بك أفق، وهو لا يتحدث.

فالتفت أنظر فأصابني هول أنا الآخر وتصلبت مثله مكاني.

ورددت بهدوء وصوت أصابة الذهول ماذا سيفعل هؤلاء الملاعين بكل تلك الأسلحة.

كانت الغرفة مدججة بالأسلحة في كل مكان، لم أكن خبيراً في أنواع الأسلحة، ولكنني رأيت قنابل وصواريخ ورشاشات وأسلحة ثقيلة كافية لتدمير عشرات القرى كما أكد إبراهيم ذلك وهو يتفحصها أيضاً.

ثم أفقت من صدمتي وقلت له: يا إبراهيم هيا بنا فراشد بمفرده بالداخل.

– فقال: نعم صدقت بعدما أفاق هو الآخر.

ولكنه أخذ معه أحد أصابع الديناميت لم أعلم لماذا ولم أهتم، ولكننا انطلقنا سريعا وشعرت بأن علينا الإنفصال الآن لا محالة، حتى ولو كان ذلك خطر ولكننا لا نملك الوقت.

– فقلت لإبراهيم: التف أنت وتسلق من الجانب الآخر، أما أنا فسأتسلق تلك الشرفة إلى الغرفة المضيئة عالياً تلك.

فوافقني ثم ذهب.

رأيت سلم خشبي بجانبي فأسندته للحائط وتسلقت لداخل الغرفة، وكما هيئ لي وأنا بالأسفل، كانت مليئه بالأوراق والألواح في كل مكان كما لو كانت مخططات..

رسمت فيها معظم مدن فلسطين وعلى البعض منها لون أحمر، ورُسم حداً بقلم أسود على حدود القدس، كانت معظم تلك المخططات كطلاسم بالنسبة لي ولكن لمعت عيني لتاريخ كان قد كُتب بعرض لوحة علقت بمنتصف الغرفة. 14 مايو 1948.. ماذا نحن الآن 10 أو 9 أعتقد ماذا يخطط هؤلاء الملاعين.

قاطع تفكيري صوت أقدام خارج الباب فهرعت مختبئاً خلف كرسي وأراقب أقدام من دخل، كان على مايبدو شاباً يحمل بيده سطل من المياه، وتقدم إلى جانب السرير وأنا أراقبه، وفجأة فض محتوى السطل بجانب السرير وهو يقول أفق أيها "الجويم"[1]..

ماذا! إنه محمود..

- يفتح عينيه بتثاقل ويستمع لكلام ذلك الأحمق، وهو يقول قصدت أن أحتجزك هنا بتلك الغرفة حتى ترى ما خططنا له، وتعلم أننا سنمتلك كيان

[1] - يعتقد اليهود نفوسهم وحدهم مخلوقة من نفس الله وأن عنصرهم من عنصره وأن ما من خلق دونهم هم جويم أي خلقوا من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة، ولم يخلقوا إلا لخدمة اليهود.(كتاب بروتوكلات حكماء صهيون، تقديم عباس محمود العقاد).

ودولة على أرضك وسيكون قريباً جداً، ثم ضحك ضحكة استهزاء وأردف: بالطبع لن تستطيعوا فعل شيء حتى لو هربت أنت الآخر كما فعل صاحبك سابقاً.

- فرد محمود عليه بضعف ووهن أنت ح..ق..ير.

ثم سمعت صوتاً من الخارج ينادي ديفيد أغثنا، يبدو أن أحد قد اقتحم المنزل..

لقد كان صوت مايا وتحمل بيمينها مسدس وهذا اللعين إذاً هو ديفيد.

فانطلق معها مسرعاً.

وسمعت دوي طلقات نيران خارجاً يبدو أن أمرنا قد كُشف، فهرعت نحو محمود أحاول أن أفكه وأفيقه بسرعة قدر ما أستطيع..

محمود أفق هيا.

- استجمع قواه بعض الشيء ثم ابتسم وهو ينازع آلامه وقال: سالم كيف جئت هنا.؟

- فطلبت منه أن يصمت حتى لا يرهق نفسه، ثم قمت بإسناده بعدما حررته من قيوده وأنا أقول: سأخرجك من هنا لا تخف أنت بأمان الآن يا محمود.

وهو بين حالين إما يبتسم ويقول كلام لا أفهمه أو يفقد وعيه لحظات ثم يعود يهلوس وهو خائف بطريقة هيستيرية.

وأنا أردد ودموعي تسيل: ماذا فعلوا بك يا صاحبي!.

خرجت سانداً محمود على كتفي الأيسر وأحمل سلاحي بيميني من باب الغرفة في هدوء، فوجدت أمامي طرقة طويلة تنتهي بصالة دائرية كبيرة، لحسن الحظ أنهم كانوا مشغولين مع راشد وإبراهيم، على الرغم أنني كنت أخشى عليهم لكنهم مثلّوا لنا غطاءاً ممتازاً في تلك اللحظة.

دلفتُ إلى الصالة ووجدت كل فرد منهم ممسك بسلاحه واستلم شرفة ويتبادلون النار مع راشد وإبراهيم كميليشية مدربة جيدا، حتى مايا كانت بينهم هى الأخرى، نظرت يساراً فرأيت سلماً ينخفض إلى الأسفل حيث يقابلك باب خشبياً يفصلك عن الخارج.

فاجئني صوت ديفيد وهو يقول بلغتهم الغريبة كلمات لم أفهمها، فوجدت مايا تضع السلاح جانباً وتتحرك نحو الطرقة، فرجعت تلك الخطوة سريعاً إلى الطرقة الشبه مظلمة وبينما كانت تلك الشيطانة تركض قاصدة الغرفة على ما يبدو، مارةً بالطرقة كنت قد أنزلت محمود عن زراعي وأسندته للحائط..

وحينما اقتربت مني وهي تركض قبضت عليها فجأة قبل أن تستوعب الموقف، ثم كممت فمها بيدي سريعاً ووضعت مسدساً على رأسها..

- بينما كان ديفيد ينادي عليها، همست لها صدقيني بحق كل ذرة حب كانت موجوده بداخلي لك، إن لم تتحدثي بطبيعتك وتطمئنيه باللغة العربية، لأفرغن طلقات ذلك المسدس برأسك أيتها القذرة.

فهزت رأسها موافقة بعناد يشوبه خوف.

فأنزلت يدي عن فمها.

- فأجابته: إن الأسير موجود هنا كما هو يا ديفيد.

- ثم قلت لها: والآن سأعلمك درس يا مايا إن الرجال عندنا لا يضربون النساء وإن كن ساقطات مثلك ولا يستقوون عليهن، لذا سأكتفي بتلك اللاصقة على فمك وأن أربط يدك فقط، حتى ولو كان داخلي يحترق لما فعلتيه بي سابقاً.

ثم بصقت على وجهها وحملت محمود وجريت نحو الصالة مستلماً السلم ثم الباب الي الخارج، وأشرت إلى راشد حتى يغطينا للخروج.

وبينما أحاول الركوض سريعاً نحو إحدى الشجيرات لأسند محمود حتى يلتقط أنفاسه ويستعيد جزءًا من قوته، حتى وجدت ديفيد أمامي يمسك سلاح ويوجهه لرأسي قائلاً ضع سلاحك على الأرض أيها المسخ، وإلا خسرت نفسك وصديقك.

كان راشد وإبراهيم مشغولين برد الرصاص الذي كان ينهال عليهم ولم يستطيعوا الانتباه إلينا، لم أجد بداً من أن أضع سلاحي أرضاً وأنصاع لقوله.

- قال لي بكل غرور وعنجهية: أتعلم ما هو المضحك في ذلك الأمر، أنكم تظنون نفسكم ستوقفوننا أيتها الحشرات، وأننا لن نستطيع تحقيق ما نريد مهما كلف الأمر.

- قلت له: أتعلم قد يكون هناك جزء من حديثك صائباً، أنك تحاول بكل ما استطعت لتحقيق هدفك الخبيث حتى لو كانت زوجتك هي الطريقة، ثم أكملت باستخفاف أما الجزئية الأخرى بأنكم ستحققون ما تريدون من

سرقة واختلاس، فأتمنى أن تسأل زوجتك أيضاً عن قصة الشجرة العجوز التي شهدت على قبلاتها الحارة لي.

سحب أجزاء سلاحه ووضع أصبعه على الزناد وبدأت أتلو الشهادتين، وأنوي أن ألتقط سلاحي وأصوبه نحوه ثم قبل أن يفعل، سمعت صوت طلق رصاص من كل اتجاه حتى نحو ديفيد ففر هارباً خلف إحدى الشجيرات.

ثم نظرت خلفي فوجدت تلك الشيطانة مايا قد أطلقت رصاصة نحوي، وركضت هي الأخرى ووجدت محمود ينزف دماً بغزارة من صدره.

فأسندته على قدمي وامتلئت يداي بالدماء، وأنا أبكي وأنتحب ولا أصدق ما حدث.

- قال: أأنت بخير يا صاحبي.

- لا تجزع يا أخي فقط اهدأ، سأنقذك.

- قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: إن الخائن ليس إبراهيم يا سالم إنه حسن، لقد رأيته هنا، أخبر حور أنني أحبها وأنني لم أتمنى إلا أن أكون بجوارها للأبد.

فاحتضنته وأنا أبكي وأقول: ستخبرها أنت ذلك يا أخي صدقني ستفعل.

أزلت عنه نظارته المليئة بالدماء ثم تلى الشهادتين بين يدي، واستشهد محمود رجلاً يدافع عن بلده وأرضه بكل عزة وفخر.

أغلقت عينه، وأسندته للحائط وانتفضت حاملاً مسدسي وركضت أبحث عنهم كالمجنون، ولكن فجأة شعرنا بأن دعم قد أتى لهم لا أعلم من أين ولا كيف فصرخ راشد هيا بنا احمل محمود يا إبراهيم هيا يا سااالم.

ركضت نحو الشجرة التي يختبئ خلفها اللعين ديفيد وصرعته أرضاً تحت صراخ راشد ودعم مينا، الذي امتطي الحصان وأتى مسرعاً حينما فجر إبراهيم مخزن سلاحهم بالديناميت التي أخذه حتى يلهيهم.

لكمته بكل قوتي وضربته بكل غيظٍ وحنق وأنا أبكي وأنتحب، ثم جذبني راشد حتى ينقذني من الرصاص حولي سريعاً وأخرجني بعدما حمل إبراهيم محمود على الحصان وركض هو ومينا تاركاً غرفة السلاح تحترق.

فالتقط سلاحي وأنا أركض وأطلقت نحوهم، فأصابت رصاصتي رأس الأفعى نوعام فوقع صريعاً وركضت أنا وراشد تحت أصوات الطلقات والصيحات والفوضى العارمة إلى الخارج.

*****

14 مايو 1948.

أي بعد استشهاد محمود بأربعة أيام وبعد أن شيعت جنازته ملتفاً بعلم فلسطين الشريف، محمولاً على أكتاف أحبته وأصحابه، وخرجت كل القرية في جنازته في مشهد مهيب لنوصله إلى قبره.

- قال عمر: فتلك النظارة التي رأيتها تعود...

- نعم يا حبيبي تعود لأغلى وأحب الناس إلى قلبي، صاحبي ورفيق روحي محمود، وكانت تلك النظارة هى آخر ما تبقي لي من زكريات لأبكي عليها، فحينما كنت أبكي في كل مرة أمسك به الصندوق إنما أبكي لتذكري من رحلوا يا بني.

ولم نكد نفق من صدمة محمود التي كادت أن تموت على إثرها حور، حتى فوجئنا بإعلان دولة باطلة للكيان الصهيوني على أرضنا، بدون التفات ولا مراعاة لحقوق وحياة الفلسطنين.

ثم اندلعت حرب (48) واشترك بها راشد وإبراهيم، ولكن قبل أن يذهب بالطبع اعتذرت منه عن شكّي به.

وقال لي: بالمناسبة إن ريم تحبك جداً، علمت ذلك حينما تقدّمت إليها ورفضتني أتمنى أن أشهد زفافكما يا أخي.

ثم احتضنته وودعته.

أما عن الخائن حسن، فقد اختفي ولم يعلم أحد مكانه أبداً.

وأقسمت حور على أن لا تتزوج بعد محمود أبداً، وتمسكت ببيتها الذي أصابه الأعداء بقذائف لاحقاً.

سمعت بعد ذلك أن إبراهيم قد استشهد في تلك الحرب "النكبة" ولكنني لم أتيقن، وبعد تلك الحرب تحديداً تغيرت ملامح فلسطين للأبد.

فلقد ضاعت أكثر من 70 بالمائة من أرض فلسطين يا عمر، بعدما كان اليهود لا يزالون قله، استحوذوا على كل شيء يابني.

على أية حال فإن عمتك تريز لم تبرح مكانها أيضاً وتمسكت ببيتها هى وابنها، أما عن عبدالهادي فلم أسمع عنه شيئاً أبداً مذ آخر مرة قابلني فيها.

ثم بعد هدوء الأمر وركود الحرب التي لن نتنهي أبداً، تزوجتُ جدتك ريم رحمها الله وزفت إليّ في بيت أبانا الحاج عبدالقادر لنعش مع أخي علي وإسراء وأشجان.

وينعم عليّ الله بأولاد وأحفاد مثلكم منها، ليسمعوا قصة الصندوق ويقاوموا هم أيضاً حتى النهاية مثل ما فعلنا...

- والآن نغلق الصندوق يا عبدالله، وقد أخبرتك بكل ما أخبرني به جدي سالم وأوصاني أن أخبر به أولادي وأحفادي أيضاً.

عدني يا بني أنك ستحفظه وتدافع عن أرضك ما حييت أنت وأبنائك.

- أعدك يا أبي، فالشجرة العجوز ستعود لأصحابها مهما طال الزمان.

تمت بحمد الله.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.